THE MYSTERY OF CLOOMBER

فريق متميزون

E-BOOK

سر كلومبر

آرثر كونان

ترجمة: محمد أحمد حسين

دارك

ترجمات

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب :

كلمه مهمة :

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها .

مع تحيات :

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سر كلومبر

رواية مترجمة ..

الكاتب : آرثر كونان

ترجمة : محمد أحمد حسين

عن الكاتب ..

-هو السير (آرثر إغناتيوس كونان دويل) (22 مايو 1859 – 7 يوليو 1930) طبيب إسكتلندي وكاتب مشهور...

من غير الممكن ذِكر اسم (آرثر دويل) دون أن يقفز إلى الأذهان الشخصية الشهيرة (شيرلوك هولمز) التي أبدعها الكاتب وفتحت أمامه أبواب الشهرة والخلود الأدبي، الشخصية التي استوحاها من أستاذه في الجامعة (جيمس بيل)، كما استوحى شخصية صديق (هولمز)-الدكتور (واطسون)- من الطبيب (جايمس واطسون) الذي زامله أثناء ممارسة الطب في (بورتسموث) وكان يشتهر بخفة الظل ونهمه الشديد للطعام!

ابتكر أيضًا (دويل) شخصية العالم البروفيسور (تشالنجر) المهتم في البحث في الماورائيات والظواهر الغريبة، وقد حققت تلك الشخصية أيضًا نجاحًا مقبولاً، ولكنه لا يُقارَن بنجاح شخصية (هولمز).

كانت أولى روايات (دويل) المطبوعة -بحسب موقع ويكيبيديا- هي رواية (دراسة بالقرمزي) عام 1887م وهي الرواية التي شهدت الظهور الأول لهولمز ورفيقه، ولاقت نجاحًا مستحسناً، وإن رجّح بعض النقاد أن (دويل) قد كتب روايات أخرى قبلها راسل بها العديد من المجلات، ولكن لم يتم نشرها إلا في السنوات التي تلت نجاح (دراسة بالقرمزي) ورواية المغامرات التاريخية التي تلتها (ميخا كلارك) في عام 1888م.

يمتاز أدب (دويل) بأنك لا يمكن أن تمل منه أبداً، ولا يمكن توقع ما ستسفر عنه الأحداث في الكتاب الذي يقع بين يدي القارئ؛ فكتاباته متنوعة بين المغامرة، والتشويق، والإثارة، والخيال العلمي، والأدب التاريخي أيضًا!

لم يكن (دويل) مجرد كاتب للقصص والروايات فحسب؛ بل كتبَ مجلداتٍ تاريخية هامة لم تحز -للأسف- نصف شهرة روايات وقصص (هولمز) و (تشالنجر)!

من أهم هذه الكتب:

-حرب البوير العظمى (عام 1900م)

-جريمة الكونغو (عام 1909م).. (في هذا الكتاب فضح (دويل) الممارسات الوحشية للاحتلال البلجيكي لدولة الكونغو)

-الحرب الألمانية (عام 1914م)

وغيرها من الكتب التاريخية الهامة، كما اهتم أيضًا بعلم الروحانيات وسعى حثيثا لاكتشاف العوالم الغيبية المجهولة، وقام بتدوين تجاربه الشجاعة في أكثر من كتاب نذكر منها :

- ما هي الروحانية (صدر باسم: الوحي الجديد) عام 1918م

- رحلة روحانية عام 1921م

- تاريخ الروحانية عام 1927م

وهكذا كانت حياة ذلك الكاتب المغامر الشجاع، الذ جذب أنظار القراء الانجليز وقراء العالم أجمع بروعة أسلوبه وحبكة أحداثه الرائعة، ونجح أن ينقل بين دفتي أي كتاب يحمل اسمه، القارئ إلى عوالم غامضة مثيرة مفعمة بالتشويق والإثارة في رحلة ممتعة مع التاريخ والألغاز والعصابات الذكية والظواهر الغريبة، مع (هولمز) و (تشالنجر) ومدافع حرب البوير وجلسات تحضير الأرواح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عن الرواية..

تمت طباعة هذه الرواية عام 1889م وفي ترتيب الروايات التي كتبها (دويل) تحتل المرتبة الثالثة بعد (دراسة في القرمزي) و (ميخا كلارك) ...وقد رجحت بعض الأخبار أن (سر كلومبر) تم نشرها عام 1888م وليس عام 1889م لتحتل بذلك -فعلياً- المرتبة الثانية في كتابات (دويل).

عامة.. ظهرت (سر كلومبر) في جريدة (بول مول) أواخر عام 1888م وهي أول رواية رعب تشويقي كتبها (دويل) مبتعداً بها عن جو التحقيقات والمطاردات الذي تميزت به قصص (هولمز).

والرواية تعتمد على تيمة الجيران الغامضين، المنغلقين على أنفسهم ويبدو أنهم يخفون سرًا خطيرًا، نجحت الرواية نجاحًا كبيرًا وبشَّرت بموهبة (دويل) المبكرة في السرد والوصف وإتقان الحبكة، كما جمعت الرواية قسطًا لا بأس به عبرَّ عن حياة جنرالات الحرب الإنجليز في الغربة بعيداً عن الديار وهم يحاولون فرض سطوة الإمبراطورية البريطانية على الدول التي تحتلها.

كما كان للوصف التفصيلي للقرى الإسكتلندية النائية ومشاهد الطبيعة في الريف الإنجليزي أبلغ الأثر في نفس القارئ، كي يلتقط أنفاسه وهو يحاول كشف غموض قاعة كلومبر ذات البرج الشاهق، وسكانها الكئيبين.

رواية (سر كلومبر) سعدت بها وأنا أقرأها بالإنجليزية، وازدادت سعادتي وأنا أترجمها للعربية؛ كي أنقل للقارئ العربي هذه الرواية البديعة التي تجمع بين الغموض والتشويق والإثارة في كتاب واحد يستحق أن يطلق عليه بالفعل.. أحد إبداعات (آرثر كونان دويل).

(المترجم)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

الهجرة من ادنبرة ([1])

لقد سعيت أنا (جون فوثيرجيل ويست) طالب القانون بجامعة سانت أندرياس- في الصفحات التالية إلى تدوين قصتي أمام الجمهور بطريقة مُوجَزة قبل أن يظن بعض الناس أنني أسردها بغرض احتراف الأدب أو الكسب من ورائها.

لا توجد لدي رغبة في تحقيق نجاح أدبي، ولسwت مولعًا بروعة أسلوبي، ولست مهتمًا بالترتيب الفني للأحداث، وذلك لألقي بظلال أعمق على الأحداث الغريبة التي يجب أن أتحدث عنها.

كل ما أطمح إليه هو أن أولئك الذين يعرفون شيئاً عن هذه المسألة، بعد قراءة هذا النص أن يكونوا قادرين على الحكم عليها بضميرٍ حيٍّ دون العثور على فقرة واحدة قمت بإضافتها إلى الحقيقة أو انتقاصها منها.

في حالة تحقيق هذه النتيجة سأشعر بالرضا التام عن نتيجة مغامرتي الأولى -وربما الأخيرة- في الأدب.

كنت أنوي كتابة تسلسل الأحداث بالترتيب المناسب وفق الأقاويل الموثوق بها عندما كنت أصف ما يتجاوز معرفتي الشخصية. ولكن من خلال تعاون الأصدقاء المثمر، أصبح لديّ الآن تخطيط جيد للنص أُعِدَ بحيث يكون أقل إرهاقاً بالنسبة لي وأكثر إرضاء للقارئ.

وهذا لا يقلل من الاستفادة من المخطوطات المختلفة التي اعتمدت عليها في الموضوع، ولا من الأدلة المباشرة التي ساهم بها أولئك الذين أتيحت لهم فرص أفضل لمعرفة الجنرال ج.ب. هيذرستون

عملاً بهذا التصميم، سأعرض أمام الجمهور إفادة (إسرائيل ستاكيس)، البستاني السابق في قاعة كلومبر، و(جون إيسترلينغ) القاطن حالياً في (سترانرير) (ويجتونشاير).

إضافة إلى السابق، سأضيف مقتطفاتٍ من مذكرات الراحل (جون بيرثي هيذرستون)، عن الأحداث التي وقعت في وادي ثول خريف عام 1841 مع نهاية الحرب الأفغانية الأولى ([2])، مع وصف المناوشات في(تيرادا تنجس) وموت غولاب شاه.

بالنسبة لي، فعندي التزام بملء جميع الفجوات والثغرات التي قد تُترَك في السرد بموجب هذا الترتيب، فتحولت من مؤلف إلى مترجم، لكن من ناحية أخرى كاد أن يتوقف عملي عن أن يكون قصة تحوّل إلى سلسلة من الشهادات الخطية!

كان والدي، (جون هانتر ويست)، باحثاً مشهورًا في اللغات شرقية والسنسكريتية ([3]) ولا يزال اسمه معروفاً بالنسبة لأولئك المهتمين بمثل هذه الأمور.

لقد كان هو أول من لفت انتباه السير وليام جونز إلى القيمة الكبيرة للأدب الفارسي القديم، وحظيت ترجماته عن الحافظ وعن فريد الدين عطار ([4]) بأحرِّ ثناء من البارون فون هامر بورغستال، في فيينا، وغيره من النقاد البارزين حول العالم.

في قضية (ورقة العلوم الشرقية) لشهر يناير عام 1861 تم وصفه بأنه (القنَّاص الماهر واسع الاطلاع) أتذكره جيداً وهو يُخرِس الألسنة بصورة قاطعة وبغرور عفوي وهو يتعامل مع سجلات وإرث أهم عائلة مبجلة!

لقد ترعرع ليكون محامياً، أو (كاتب ختم)، كما يطلق عليه في إسكتلندا، ولكن هوايته استنزفت وقته لدرجة أنه لم يكن لديه سوى القليل منه لمهنته.

عندما كان موكلوه يبحثون عنه في مكتبه بشارع جورج، كان يقضي فترة راحته مدفوناً بين الكتب بمكتبة المحامين، أو يملأ بعض المخطوطات المتعفنة في المعهد الفلسفي، ويرى أن تدريب عقله على فك شفرات ظهرت قبل ولادة المسيح بستمائة عام أفضل من المشاكل المعقدة للقانون الإسكتلندي في القرن التاسع عشر!

ومن ثم لا يمكن أن نتساءل في هذا الأمر؛ لأن تعليمه ساعده في تلك التدريبات على فك الشفرات، وحتى في اللحظة التي وصل فيها إلى ذروة شهرته، وصلت حالته المادية إلى الحضيض.

ونظرًا لعدم وجود كرسي لقسم السنسكريت في أيٍّ من الجامعات الوطنية ولا يوجد طلب في أي مكانٍ على أبحاثه وترجماته، كان ينبغي لنا أن ننعزل في فقرٍ أنيقٍ، ونعزي أنفسنا بالأعراف والمبادئ الخاصة بفيردوسي([5]) وعمر الخيام، وغيره من شعرائه المفضلين في الشرق ونعتمد على لطف وكرم أخيه غير الشقيق (وليام فارنتوش)، لورد برانكسوم في (ويجتاونشاير).

كان (وليام فارنتوش) مالكًا لرقعة من الأرض ولسوء الحظ لم تكن قيمتها متناسبة مع مساحتها؛ لأنها في المجمل كانت أرضًا مظلمة قاحلة وجرداء، ولكن كأعزب كانت نفقاته محدودة وكان يحصل من إيجارات المنازل الريفية المتناثرة على أرضه على ما يكفيه، ليس فقط للعيش في حالة ميسورة، ولكن ليصبح عنده مبلغ كبير في البنك.

لم نسمع سوى القليل عن قريبنا العطوف خلال أيام ازدهارنا النسبي، ولكن في نهاية الأمر وصلنا منه خطاب كان بمثابة ملاك الرحمة بالنسبة لنا، وأعطانا قناعة بتعاطفه معنا وسعيه لنجدتنا، عندما أخبرنا لورد برانكسوم في خطابه أن إحدى رئتيه أصابها المرض، وأن الدكتور (إستيرلنج) من (سترانرير)، قد نصحه بشدة بقضاء بعض السنوات القادمة في أجواء لطيفة الهواء.

ولذلك فقد قرر أن يتجه إلى جنوب إيطاليا، وطلب منا أن نقيم في برانكسوم حال غيابه، وأن يتولى والدي دور وكيل الأرض براتب محترم يدفع عننا الخوف من الفقر.

كانت والدتنا قد ماتت منذ عدة سنوات؛ بحيث لم يكن هناك سوايَ وأبي وأختي (إستير) للتشاور في ذلك الأمر، ويمكن بسهولة تخيُّل أن الأمر لم يستغرق وقتاً طويلاً لاتخاذ قرارٍ بشأن قبول العرض

السخي المقدَّم لنا.

انتقل والدي إلى (ويجتاون) في تلك الليلة، وتبعته أنا و (إستر) بعد ذلك بأيام قليلة، حاملين معنا جوالين بطاطس ملأناهما بالكتب المفيدة الخاصة بوالدي، وغيرها من الأدواتً المنزلية التي كانت تستحق تكبُّد عناء حملها، ونفقات النقل.

الفصل الثاني

(السلوك الغريب للمستأجر القادم إلى كلومبر)

قد تبدو برانكسوم مكاناً فقيرًا محدوداً عند مقارنتها بالميادين الإنجليزية، ولكن بالنسبة لنا وبعد إقامتنا الطويلة في شقق ضيقة كان الأمر رائعًا للغاية.

كان المبنى واسعًا وليس بعال، وسطحه مزيَّن بالبلاط الأحمر ونوافذ مطلية باللون الذهبي، وغرف سكنية ذات سقف أسود مصنوع من خشب السندان.

عند الواجهة كان هناك عشبٌ صغيرٌ، يدور بخفة مع فروع خشب الزان الذابلة من آثار أمواج البحر، ووراء المنزل كانت قرية (برانكسوم بيري) عشرة منازل ريفية على الأكثر متناثرة يسكنها صيَّادون سمك حمقى ينظرون إلى اللورد على أنه حاميهم الطبيعي.

إلى الغرب كان الشاطئ الأصفر الواسع والبحر الآيرلندي، بينما في جميع الاتجاهات الأخرى كانت المستنقعات المهجورة، ذات اللون الأخضر الداكن في المقدمة، والأرجواني على بُعدِ النظر ممتدة بعيداً في منحنيات طويلة ومنخفضة إلى الأفق قاتمة جداً ومعزولة.

على ساحل (ويجتاون) قد يمشي الرجل كثيرًا على مسافة ميل مرهق، ولا يرى شيئاً حيًّا سوى النوارس البيضاء التي ترفرف بثقل وهم يصرخون على بعضهم البعض بأصواتهم الحزينة.

قرية معزولة وقاتمة للغاية!

بعيداً عن الأنظار من برانكسوم لم يكن هناك أيُّ دليلٍ على وجود بشرٍ، إلا عندما رأينا برج (مبنى كلومبر) الأبيض العالي الارتفاع، كشاهد قبر لبعض القبور العملاقة من وسط التنوب والأروقة المحيطة به..

تم بناء هذا المنزل الكبير، على بُعد ميلٍ واحدٍ أو أكثر من مسكننا من قِبل أحد تجَّار غلاسكو الأثرياء ذوي الأذواق الغريبة والعادات الشاذة، ولكن في وقت وصولنا كان غير مأهول لسنوات عديدة وقد صمدت الجدران الشاغرة أمام تقلُّبات الطقس ونوافِذه الصماء تنظر في غموض إلى ناحية التل.

كان المبنى خالياً من الفطريات والعفن، إلا أنه كان بمثابة علامة فارقة للصيادين؛ لأنهم وجدوا من خلال التجربة أنه من خلال رسم خط مستقيم بين مدخنة منزل اللورد وبرج كلومبر الأبيض يمكنهم تحديد طريقهم عبر الشعاب المرجانية الخشنة المنتشرة فوق المياه المضطربة للخليج كوحشٍ نائمٍ اجتاحته الرياح.

قادنا المصير نحن الثلاثة إلى هذه البقعة البرية.

ولم تشكل الوحدة أيَّ ذعرٍ بالنسبة إلينا بعد صخب وضجيج مدينة كبيرة؛ فهناك كانت لدينا مهمة مرهِقة تمثلت في الحفاظ علَى مظاهرنا اللائقة بدخلٍ ضئيل!

كان هناك صفاءٌ كبيرٌ ومريح في السماء الواسعة والهواء النقي، هنا على الأقل لم يكن هناك جار للتجسس علينا والثرثرة معنا.

ترك اللورد لنا عربة يجرها مُهران صغيران، وقمنا- أبي وأنا- بالذهاب في جولة حول الضيعة لتفقُّدها ومباشرة واجبات وظيفة (الوكيل)، بينما اهتمت (إستر) اللطيفة باحتياجاتنا المنزلية وعملت على تنظيف وتنظيم منزلنا الجديد.

ظلَّ وجودنا بسيطًا وهادئاً، حتى ليلة صيف عندما وقعَ حادثٌ لم يسبق له مثيل، وبرهن على أنه كان مقدمة لتلك الأعمال الغريبة التي سيتناولها قلمي لوصفها.

من عادتي أن أقضي المساء في مركب عائم وأصطاد سمك البياض المفضل لدينا على العشاء. في هذه المناسبة التي أتذكرها جيداً جاءت أختي معي، وجلست مع كتابها في مؤخرة القارب، بينما كنت أربط الخيط بطرف الصنارة.

غابت الشمس وراء الساحل الآيرلندي الوعر، وبقيت سحابة واحدة ممتدة كبقعة كبيرة في ثوب السماء ميزت المكان وألقت بظلالها على المياه، كان المحيط الواسع تملأه الأمواج ذات القمم القرمزية، فنهضت واقفاً على القارب أشاهد ما حولي من بانوراما واسعة تآلفت من الشاطئ والبحر والسماء عندما سمعت صرخة مفاجئة حادة قادمة من شقيقتي!

صرخت قائلة: "انظر (جون)، هناك ضوء في برج كلومبر!"

أدرت رأسي وحدقت في البرج الأبيض ذي الارتفاع الشاهق الذي برز عالياً بين حزام الأشجار، وعندما نظرت نحوه رأيت بوضوح عند إحدى النوافذ وميض الضوء الذي اختفى فجأة، ثم أومض مرة أخرى متنقلاً من نافذة لأخرى تعلوها، وظل مضيئاً لبعض الوقت، وأخيرًا ومض في نافذتين متتاليتين بالأسفل قبل أن تحجب الأشجار نظرنا إليه.

كان من الواضح أن شخصًا يحمل مصباحًا أو شمعة قد صعد سلالم البرج ثم عاد إلى أسفله..

"مَن يكون؟" صرخت متحدثاً إلى نفسي بدلاً من (إستير)؛ لأنني استطعت أن أرى هول المفاجأة على وجهها، وبدا عليها العجز عن تقديم أي تفسير أو إفادة لما تراه!

قلت: "ربما أراد بعض الأشخاص من (برانكسوم بيري) إلقاء نظرة على المكان".

فهزت أختي رأسها نافية لذلك الافتراض، ثم قالت:

"لا يوجد واحد منهم يجرؤ على السير داخل بوابات الحديقة، إلى جانب أنه يتم الاحتفاظ بالمفاتيح لدى وكيل المنزل في (ويجتاون)، مهما كان فضول أهل القرية، فلا يستطيع واحد منهم أن يحصل على تلك المفاتيح."

عندما فكرت في الباب الهائل والمصاريع الضخمة التي كانت تحرس الطابق السفلي من كلومبر، لم أستطع إلا أن أعترف بقوة حجة أختي؛ فيجب أن يكون الزائر المفاجئ إما قد استخدم عنفاً شديداً من أجل شق طريقه إلى البرج، وإما أنه حصل على المفاتيح.

شعرت بالغموض وأنا أنسحب بالقارب إلى الشاطئ، وصممت على أن أرى بنفسي مَن يمكن أن يكون المتسلل وما هي نواياه.

بعد أن أودعت أختي في برانكسوم، استدعيت (سيث جاميسون) وهو رجل عجوز وأحد أشد صيادي الأسماك وانطلقت معه عبر المستنقع خلال الظلام الدامس.

علق رفيقي -الذي لاحظت أنه يخفف من سرعته كلما اقتربنا من البرج- قائلاً:

"لا يجرؤ أحد على الاقتراب من البرج ليلاً"..ثم أخذ يذكر طبيعة الأرض القاحلة والمهجورة.

"حسناً هناك شخص ما ليس لديه مخاوف وقام باقتحامه."

قلت، مشيرًا إلى المبنى الأبيض الكبير الذي بدا شامخًا وكئيباً في الظلام.

كان الضوء الذي لاحظته من البحر يتحرك للأمام ويمر عبر نوافذ الطابق السفلي، الذي تمت إزالة مصاريعه، وأستطيع أن أرى الآن أن الضوء الخافت الثاني يتبع الضوء الآخر متأخرًا عنه ببضع خطوات، من الواضح أن شخصين، أحدهما مزوَّد بمصباح والآخر بشمعة مضاءة، كانا يجريان فحصًا دقيقاً للمبنى.

قال (سيث جاميسون) بعناد وهو ثابت في مكانه دون نية للتحرك:

"ما المهم إذا كان هناك شبح أو طيف يأخذ جولة في كلومبر؟؟ ليس من السهل التدخل في مثل هذه الأشياء."

"لماذا يا رجل؟ "صرختُ.

"أنت لا تفترض أن شبحًا جاء إلى هنا؟ ما هي تلك الأضواء بعيداً عند بوابات الجادة؟ " "المصابيح يا سيدي بالتأكيد كافية! "صرخ رفيقي في صوت أقل عنفاً.

"دعنا نتوجه إلى هناك يا سيد (ويست)، كي نعرف مصدرها."

بحلول هذا الوقت، كان الليل قد أطبق بظلامه باستثناء شقًّا ضيقاً من الشفق ناحية الغرب، تعثرنا عبر المستنقع معًا ثم شققنا طريقنا إلى طريق ويجتاون، عند النقطة التي تشير فيها الأعمدة الحجرية العالية إلى مدخل شارع كلومبر وقفت عربة طويلة أمام البوابة، كان حصانها يرعى في العشب الذي حاصر الطريق ويأكل منه.

"هكذا.. الأمر صحيح!" قال (جاميسون) ثم اقترب من العربة وألقى عليها نظرة فاحصة قبل أن يقول:

"أنا أعرف هذه العربة؛ إنها تخص السيد (ماكنيل) وكيل (ويجتاون) الذي يحتفظ بمفاتيح المبنى."

أجبته: "لا بُدَّ أن نتحدث معه الآن بعد أن وصلنا إلى هنا، إنهم يهبطون الآن للأسفل إن لم أكن مخطئاً."

وبينما نتحدث، سمعنا صوت الباب الثقيل وهو ينفتح، وفي غضون بضع دقائق ظهر شخصان أحدهما طويل القامة ورفيع، والآخر قصير وبدين اتجها نحونا في الظلام وكانا يتحدثان باهتمام شديد حتى إنهما لم يلاحظانا حتى مرا عبر بوابة الحديقة.

"مساء الخير يا سيد (ماكنيل)" قلتها وأنا أخطو للأمام محاولاً اكتشاف أي منهما وكيل (ويجتاون)؛ حيث أنني كنت أعرفه بالكاد.

أدار أصغر الاثنين وجهه نحوي وأنا أتحدث، وأظهر لي أنني لم أكن مخطئاً في هويته، ولكن رفيقه الأطول عاد إلى الوراء وأظهر كل علامة على التحريض العنيف:

"ما هذا، (ماكنيل)؟ "

ثم سمعته يقول بصوت مختنق:

"هل هذا وعدك؟ ما هو معنى ذلك؟ "

"لا تشعر بالقلق سيدي الجنرال! لا تشعر بالقلق!" قال الوكيل في نبرة مهدئة، كأنه يتحدث إلى طفل خائف.

"هذا هو السيد الشاب (فوثيرجل ويست) من برانكسوم، على الرغم من أن ما جلبه إلى هنا الليلة يتجاوز حدود فهمي، ومع ذلك ونظرًا لأنك ستكون جارًا له، لا يمكنني أن أفعل أكثر من أن أغتنم هذه الفرصة لأعرفكما على بعضكما البعض؛ السيد (ويست)، هذا هو الجنرال (هيذرستون)، وهو على وشك استئجار مبنى كلومبر".

رفعت يدي إلى الرجل الطويل الذي أخذها بطريقة مترددة.

شرحت لهما:

"لقد أتيت لأنني رأيت أنوارك في النوافذ، واعتقدت أن هناك مكروهًا ما، أنا سعيد جداً لأنني فعلت ذلك، لأنه منحني فرصة التعرف على الجنرال".

بينما كنت أتحدث، كنت مدركًا أن المستأجر الجديد لمبنى كلومبر كان يحدق بي عن كثب خلال الظلام، وعندما انتهيت مدّ ذراعًا طويلاً رائعًا وقلب المصباح مركِّزًا الضوء على وجهي. "ياللسماء! (ماكنيل)!" وصرخ بنفس الصوت المرتعش كما كان من قبل، "هذا الرفيق لون بشرته بُنّي مثل الشوكولاتة، إنه ليس رجلاً إنجليزيًا.. أنت لست رجلاً إنجليزيًا يا سيدي؟ "

"أنا إسكتلندي ولِدتُ وترعرعت هناك "، قلت له محاولاً كتمان الضحك، فقد كان واضحًا أن الجنرال مصابٌ برهاب الجيران الجدد.

"إسكتلندي، هه!" قال

واستطرد: "كل شيء واحدٌ في هذه الأيام، يجب أن تعذرني يا سيد (ويست)؛ أنا متوتّر، عصبي بشكل مخيف..

تعال (ماكنيل) يجب أن نعود إلى ويجتاون في أقل من ساعة، ليلة سعيدة أيها السادة!"

صعد الاثنان إلى مكانيهما في العربة، ثم قام السائق بلسع سوطه، وغابت العربة في الظلام، لتصنع نفقاً رائعًا من الضوء الأصفر على جانبيها، حتى تلاشت آثار عجلاتها بعيداً.

"ما رأيك في جارنا الجديد، (جاميسون)؟" سألت، بعد صمتٍ طويلٍ.

"يبدو يا سيد (ويست) أنه كما يقول عن نفسه (في حالة عصبية للغاية) وربما يكون خارجًا عن السيطرة أيضًا."

واستطرد: "تبدو معاناته جلية يا فتى، وقد حان الوقت لأن نعود إلى المنزل."

تمنيت لرفيقي في ليلة سعيدة، وانطلقت عبر المستنقعات من أجل البهجة والضوء الفاتر الذي يميز نوافذ صالون منزلنا في برانكسوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

(نظرة فاحصة على شخصية الجنرال القائد هيذرستون)

كان هناك كما هو متوقَّع؛ ضجة كبيرة بين مجتمعنا الصغير بسبب الأخبار التي تفيد بأن المبنى صار من المقرَّر أن يُسكَن مرة أخرى، وبدأت تكهنات كبيرة فيما يتعلق بالمستأجرين الجدد وغرضهم في اختيار هذا الجزء من البلدة للإقامة.

لقد أصبح من الواضح أنه مهما كانت دوافعهم فقد عزموا على الإقامة لمدة طويلة؛ فقد جاء العديد من السباكين والنجارين من ويجتاون، وكان هناك طرق وإصلاح مستمرين من الصباح حتى الليل.

لقد كان من المفاجئ مدى سرعة ظهور علامات التجديد، حتى صار المنزل الكبير تمامًا كما لو كان تم تشييده بالأمس، كانت هناك دلائل كثيرة على أن المال لم يكن له أي اعتبار لدى الجنرال هيذرستون.

"ربما يريد تكريس وقتاً للدراسة" خمّن والدي ونحن نتناقش حول طاولة الإفطار حول سبب اختياره لهذا المكان المنعزل.

"ربما يكون قد اختار هذه البقعة المعزولة لإنهاء بعض المؤلفات التي يعمل عليها، إذا كان هذا هو الحال، فسأكون سعيداً بالسماح له باستخدام مكتبتي."

ضحكت أنا وإستير بسبب الطريقة الحماسية التي تحدث بها عن الجوالين الممتلئين بالكتب.

قلت: "قد يكون الأمر كما تقول، لكن الجنرال لم يبدُ لي خلال مقابلتنا القصيرة كرجلٍ له أذواق أدبية واضحة، إذا قمت بالتخمين فربما أقول إنه هنا بناءً على نصيحة طبية كي يساعده الهدوء التام والهواء النقي في علاج نظامه العصبي المضطرب؛ إذا رأيت كيف كان يصرخ في وجهي، وأصابعه ترتجف، لتأكدت أنه بالفعل يحتاج إلى بعض الهدوء.

قالت أختي: "أتساءل إن كان لديه زوجة وعائلة، يالليؤس سيعيشون في وحدة تامة!

باستثنائنا لا توجد أسرة لمسافة أكثر من سبعة أميال يستطيعون التحدث معها."

"الجنرال هيذرستون جندي متميز للغاية" هذا ما قاله والدي.

"لماذا يا أبي؟ وكيف عرفت ذلك عنه؟"

قال والدي وهو يبتسم لنا وهو يرفع فنجان القهوة نحو شفتيه:

"آه يا عزيزي، كنت تضحك على مكتبتي، ولكنك سترى أنها قد تكون مفيدة جداً في بعض الأحيان."

وأثناء حديثه، أخذ مجلداً مغطى باللون الأحمر من على الرف وقلب الصفحات قائلاً:

"هذه قائمة بالجيش الهندي قبل ثلاث سنوات "ثم استطرد: "وهنا الرجل الذي نريده - هيذرستون جيه بي- قائد فيلق يا عزيزي، و(ع.س) ومعنى ذلك عقيد سابق في المشاة الهندية، قدم البنغال بالسرية الحادية والأربعين لكنه تقاعد الآن برتبة جنرال لواء، في هذا العمود الآخر يوجد سجل لخدماته ومقتطفات عن غزواته والدفاع عن جلال أباد، وعن (سوبرون)([6]) في عام 1848م، شارك في كبح التمرد الهندي في مدينة (أوده)([7])، تم ذكره خمس مرات في إرساليات الجيش البريطاني..

أعتقد يا عزيزي أن لدينا سبباً جيداً للفخر بجارنا الجديد."

"أعتقد أنه غير مذكور ما إذا كان متزوجًا أم لا؟ "سألت (إستير).

"لا " قال والدي وهو يهز رأسه ذا الشعر الأشيب قائلاً في دعابة: "هذا لا يندرج تحت عنوان (الأعمال الجريئة)، رغم أنه قد يكون عملاً شجاعًا للغاية، عزيزتي!"

ابتعدت شكوكنا عن الجنرال وعن حياته حتى جاء يوم الانتهاء من الإصلاح والتأثيث.

أتيحت لي الفرصة لركوب السيارة إلى ويجتاون، وقد التقيت في الطريق بمركبة كانت تحمل جنرال هيذرستون وعائلته إلى منزلهم الجديد، كان بها سيدة كبيرة في السن تتسم بمظهر مريض جلست إلى جانبه، وجلس أمامه شاباً في عمري وفتاة تبدو أنها أصغر منه بسنتين.

رفعت قبعتي تحية لهم، وكنت على وشك تجاوزهم، عندما صرخ الجنرال على سائقه ليقف ومدَّ يده لي. أستطيع أن أرى الآن في ضوء النهار أن وجهه -على الرغم من قوته وصرامته- لا يحمل أيَّ تعبيرٍ غير مألوف، كان عادياً للغاية!

"كيف حالك يا سيد (ويست)؟ "تحدَّث بصوت عالٍ.

"يجب أن أعتذر لك عن فظاظتي في تلك الليلة؛ أرجو أن تلتمس العذر لجندي العجوز قضى معظم حياته في القتال والمعارك، ومع ذلك يجب أن تعترف أن بشرتك داكنة بالنسبة لرجل إسكتلندي!"

قلت:

"لدينا عرق يعود لأصول إسبانية يجري في دمائنا".. وتساءلت في نفسي عن سبب تكرار سؤاله حول هذا الموضوع.

فقال: "هذا بالطبع يفسر كل شيء."

ثم قال لزوجته: "عزيزتي اسمحي لي بتقديم السيد (فوثيرجل ويست) إليكِ، هذا هو ابني وابنتي، لقد جئنا إلى هنا بحثاً عن الراحة يا سيد (ويست).. الراحة الكاملة."

قلت: "لا يمكن أن يكون هناك مكان أفضل من هذا."

قال: "أوه، هل تعتقد ذلك؟ "

ثم استطرد: "أفترض أنه هادئ للغاية في الواقع، ومنعزل إلى حدٍّ كبيرٍ؛ يمكنك المشي في هذه الممرات الريفية في الليل، ولن تقابل أي إنسان، أليس كذلك؟ "

قلت: "حسناً، ليس هناك الكثير بعد الظلام".

"وأنت لم تلاحظ كثرة المتشردين أو المتسولين المتجولين.. أليس كذلك؟ ليس هناك الكثير من العبث أو الصراخ أو الغجر المزعجون ألا يوجد شيء من هذا القبيل؟ "

قالت السيدة هيذرستون وهي تحكم معطفها المصنوع من جلد الفقمة حول جسدها: "أجد أسئلتك مملة إلى حدٍّ ما."

"كما أننا نحتجز السيد (ويست) أيضًا عن الذهاب في طريقه."

قال الجنرال: "ونحن أيضًا عزيزتي ونحن أيضًا، أكمِل طريقك أيها السائق، أتمنى لك يومًا جيداً سيد (ويست)".

تحركت العربة باتجاه القاعة، وأسرعت أنا إلى المدينة الصغيرة.

عندما مررت على الشارع الرئيسي، وجدت السيد (ماكنيل) يخرج من مكتبه ويشير إليَّ كي اتوقف، وقال: "لقد غادر المستأجرون الجدد مكتبي هذا الصباح."

"لقد قابلتهم في الطريق".. أجبت.

عندما نظرت إلى الوكيل، كان بإمكاني أن أرى أن وجهه كان مكفهرًا، وبدا عليه أنه في حاجة لكأس إضافية من الخمر!

ثم قال بنبرة ضاحكة: "أعطني رجلاً حقيقياً أتعامل معه يفهمني وأفهمه "ثم استطرد قائلاً:

"يقول الجنرال وهو يخرج دفتر شيكاته من جيبه: (ما هو المبلغ المطلوب لكي أكتبه؟)، أرد عليه: (فقط مائتا جنيه) بعد أن قمت بحساب هامش الربح المناسب لتعبي معه."

قلت: "لقد ظننت أن مالِك الأرض قد دفع لك مقابل ذلك."

"نعم بالطبع، ولكن لا بُدَّ أن يكون هناك هامش ربح ولو حتى ضئيل، لقد ملأ الشيك وألقى به لي كما لو كان يلقي طابعًا بريدياً قديمًا، هذه هي الطريقة التي يجب أن يتم التعامل بها بين الرجال الشرفاء، إضافة إلى أنه لن يفعل ذلك إلا إذا كان مستفيداً، ألا تأتي معي سيد (ويست) وتشرب معي كأسًا من الويسكي؟ "

"لا.. شكرًا لك، لدي أعمال لأقضيها."

"حسناً، حسناً، العمل هو أهم شيء.. من الجيد ألا تشرب في الصباح أيضًا، من ناحيتي -باستثناء كأسًا صغيرة قبل الإفطار لفتح الشهية وربما كوباً بعد ذلك للهضم- أنا لا أشرب الخمور قبل الظهر.. ما هو رأيك في الجنرال، سيد (ويست)؟ "

"لم تتح لي الفرصة للحكم بشكل جيد".. أجبت.

طرق السيد ماكنيل جانب رأسه بسبابته قائلاً: "هذا ما أفكر فيه."

قال هامسًا وهو يقترب برأسه مني في حذرٍ:

"إنه مختل يا سيدي، اختل عقله في تقديري، الآن هل تريد دليلاً أوضح من ذلك على جنونه يا سيد (ويست)؟ "

" لماذا؟ لأنه قدم شيكًا فارغًا إلى وكيل (ويجتاون)".. سألته مازحًا.

"آه، أنت متلهف للمزاح، ولكن إذا سأل رجلٌ عن عدد الأميال التي يبعد عنها الميناء البحري، وإذا كانت هناك سفن تأتي إليه من الشرق، وإذا كان هناك صعاليك على الطريق، وإذا كان من الجيد بالنسبة له بناء جدار عالٍ حول الأرض، فماذا تصنع معه؟ "

"بالتأكيد سأظن أنه غريبُ الأطوار".. قلت.

"إذا كان لكل رجلٍ مُطلَق الحرية فسوفَ نجد لصديقَنا منزلاً مأموناً مع جدار عالٍ يحيط بذلك المنزل، دون أن يكلفه شيئاً .."

سألته: "أين؟ "

صرخ الرجل الصغير: "في مصحة (ويجتاون للأمراض العقلية)!" وأخذ يضحك عالياً، وتركته ومضيت إلى طريقي وهو لا يزال يضحك بمفرده على مزحته.

لم يكن لوصول العائلة الجديدة إلى (كلومبر) أي تأثير ملموس في تخفيف رتابة منطقتنا المنعزلة؛ فبدلاً من تقديم الملذات البسيطة التي توجد في المدن الكبيرة، أو محاولة أن يمتعوا أنفسهم -كما كنا نأمل- بمحاولة تحسين حياة مزارعينا الفقراء وصيادي الأسماك، بدا أنهم يتجنبون كل اختلاط، وأن من الصعب المغامرة بالمضي وراء بوابات حديقة كلومبر.

سرعان ما وجدنا أن كلمات الوكيل فيما يتعلق بتحديد الملكية وتضييق الخناق صارت حقيقةً؛ لأن مجموعات من العمال ظلوا يعملون بجد من الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من الليل لإقامة سور خشبي عالٍ حول ملكية الجنرال!

عندما تم الانتهاء من ذلك وتصدرت مع المسامير، أصبحت ضيعة كلومبر محصَّنة ضد أيِّ رَجلٍ. كان الأمر كما لو كان الجندي العجوز مشبعًا بأفكار عسكرية لدرجة أنه -مثل عمي توبي- لم يستطع الامتناع حتى في أوقات السِّلم عن الوقوف من موقف الدفاع.

ما زال غريباً فقد انكمش على نفسه في المنزل كما لو كان محاصَرًا؛ لأن (بيبي) كبير البقالين في ويجتاون أخبرني بنفسه في حالة تجمع بين السرور والدهشة أن الجنرال أرسل في طلب لمئات الدست من اللحم المحفوظ والخضروات!

لم يتصور أحدٌ أن كل هذه التطورات ستمرُّ دون أيِّ تعليق، ففي جميع أنحاء الريف وبعيداً عن الحدود الإنجليزية، لم يكن هناك سوى ثرثرة عن المستأجرين الجُدد في كلومبر والأسباب التي دفعتهم إلى المجيء بيننا.

لكن الفرضية الوحيدة، التي يمكن أن يتصورها عقلي هي تلك التي حدَّثَني عنها السيد (ماكنيل) وهي أن الجنرال القديم وأسرته كانوا مصابين بالجنون، أو أنه ارتكب بعض الجرائم البشعة، وكان يسعى للهروب من عواقب أفعاله.

كان هذان افتراضان طبيعيان في ظِلّ هذه الظروف، لكنَّ أيًّا منهما لم يَبدُ لي كتفسير حقيقي لطبيعة الوضع.

صحيح أن سلوك الجنرال (هيذرستون) في مقابلتنا الأولى كان يوحي بالشك في إصابته بمرض عقلي، ولكن لا يمكن لأي شخص أن يكون أكثر عقلانية أو تهذيباً مما أظهره بعد ذلك.

ثم.. مرة أخرى، عاشت زوجته وأولاده نفس الحياة المنعزلة التي أقامها بنفسه، بحيث لا يمكن أن يكون السبب غريباً على صحته.

أما بالنسبة لاحتمال كونه هارباً من العدالة؛ فإن هذه النظرية لا يمكن تبنيها، فإذا كانت (ويجتاون) مدينة منعزلة، إلا أنها ليست المكان الوحيد العالم الذي يمكن لجندي معروف أن يأمل في إخفاء نفسه فيه، ولا رجل يخشى من أقاويل الناس وتداول أفعاله الغريبة كما فعل الجنرال.

بشكل عام، كنت أميل إلى الاعتقاد بأن الحل الحقيقي للغموض المحيط به يكمن في تلميحه إلى حب الهدوء، وأنهم قد لجأوا إلى هنا بشغف مريض تقريباً من أجل العزلة والاسترخاء، وسرعان ما علمت الكثير من الأمثلة للشخصيات الشهيرة التي تحمل هذه الرغبة في العزلة.

نزل والدي ذات صباح بثقل كبير على جبينه قائلاً: "يجب أن ترتدي فستانك الوردي اليوم (إستير)، وأنت (جون) يجب أن تضبط هندامك، وتكون في أحسن صورة؛ لأنني قررت الذهاب ظهر اليوم ونقدم احترامنا للسيدة هيذرستون والجنرال."

"زيارة إلي كلومبر!" صرخت إستير من الفرحة وهي تصفق بكلتا يديها.

قال والدي: "أنا هنا ليس فقط كوكيل، ولكن أيضًا كمسئول وبهذه الصفة أنا مقتنع أنه يجب أن أدعو هؤلاء الوافدين الجدد، وأن أعرض عليهم في تهذيب أي معاونة يحتاجونها في الوقت الحاضر..

يجب ألا يشعروا بالوحدة أو انعدام الأصدقاء، ماذا يقول الفردوسي العظيم؟ (إن أفضل زينة في منزل الرجل هي أصدقائه)"

عرفت أنا وأختي من خلال التجربة أنه عندما يبدأ الرجل العجوز في تبرير قراره من خلال اقتباسات الشعراء الفارسيين فلن تكون هناك فرصة لردعه.

بعد ظهر ذلك اليوم رأيت العربة الفايتون([8]) عند الباب، وجلس والدي على المقعد مرتديًا معطفه الثاني الأفضل وزوج من قفازات القيادة الجديدة.

صاح قائلاً: "اقفزوا يا أعزائي"، ثم لسع بسوطه المهور قائلاً في حماس: "وسوف نظهر للجنرال أنه لا يوجد سبب للخجل من جيرانه."

وحسرتاه.. يضيع الكبرياء دائمًا قبل السقوط!

لم تكن مهورنا التي تم تغذيتها جيداً وربط حزامها اللامع مقدرًا لها إقناع مستأجري كلومبر أن يشعروا بأهميتنا.

وصلنا إلى بوابة حديقة كلومبر، وكنت على وَشْك الخروج وفتحها عندما استحوذ على انتباهنا لافتة خشبية كبيرة جداً، تم ربطها بأحد الأشجار بطريقة لا يمكن لأحدٍ المرور بها دون رؤيتها، وعلى السطح الأبيض لهذه اللوحة طُبعت بأحرف كبيرة سوداء الكلام التالي:

(الجنرال والسيدة هيذرستون لا يرغبان في توسيع دائرة معارفهما).

جلسنا جميعًا نحدق في هذا الإعلان لبعض اللحظات في دهشة صامتة، ثم نظرنا - أنا و(إستير) - لبعضنا البعض مستشعرين سخافة تلك اللافتة ضاحكين، لكن والدي سحب رؤوس المهور لتستدير إلى الخلف وذهبَ إلى المنزل بشفتين مزمومتين وسحابة الكثير من الغضب على جبينه. لم يسبق لي أن رأيت الرجل الطيب بهذا الشكل، وأنا مقتنع بأن غضبه لم يكن ناتجًا عن أي شعور بالغرور من جانبه، ولكن من فكرة أنه تم التقليل من كرامة لورد (برانكسوم)، تلك الكرامة التي يمثلها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

(الشاب ذو الشعر الرمادي)

إذا كان لدي أي وجع شخصي بسبب هذه الإهانة العائلية، فقد كانت عاطفة عابرة وسرعان ما تلاشت من ذهني.

تصادف أنه في اليوم التالي بعد تلك الحادثة كانت لدي فرصة للمرور عبر هذا الطريق، وتوقفت لإلقاء نظرة أخرى على اللافتة البغيضة.

كنت أقف أحدق بها وأتساءل ما الذي يمكن أن يدفع جيراننا على اتخاذ مثل هذه الخطوة الفظيعة، عندما أدركت فجأة وجهًا جميلاً أنثويًا يختلس النظر نحوي من بين قضبان البوابة، ويد بيضاء تدعوني بشغف إلى الاقتراب، عندما تقدمت إليها رأيت أنها كانت نفس الشابة التي رأيتها في عربة النقل.

همست: "سيد (ويست) "كانت متلألئة على الرغم من أنها تتحدث بطريقة متوترة ومتسرعة.

"أود أن أعتذر لك عن الإهانة التي تعرضت لها أنت وعائلتك أمس، أخي كان في الشارع ورأى كل شيء، لكنه عجز عن التدخل.. أؤكد لك سيد (ويست)، أنه إذا كان ذلك الشيء البغيض (مشيرة إلى اللافتة) قد سبب لك أي إزعاجٍ، فقد أزعج أخي وأزعجني أكثر بكثير".

فقلت: "لماذا يا آنسة هيذرستون"، أخذت الأمر ببساطة وسخرية قائلاً "بريطانيا بلد حر، وإذا اختار الرجل تحذير الزائرين من مقره، فلا يوجد سبب يمنعه من ذلك".

قالت وهي تضرب الأرض بقدمها في غضبٍ:

"إنها قسوة صارمة وليست أقل من ذلك، أعتقد أن أختك أيضًا غاضبة من تعرُّضها لمثل هذه الإهانة غير المبرَّرة! أنا أشعر بالخزي كلما فكرت في ذلك الأمر."

قلت بجدية: "حبًا بالله لا تقلقوا ولو للحظة بشأن هذا الموضوع"؛ لأنني شعرت بالحزن على محنتها الواضحة.

"أنا متأكد من أن والدك لديه سبب غير معروف لنا لاتخاذ هذه الخطوة."

"الله وحده يعرف أن لديه!" أجابت بصوتٍ حزينٍ لا يُصدَّق.

"ومع ذلك أعتقد أنه سيكون من الخطر مواجهة الخطر أكثر من الفرار منه. ومع ذلك، فهو أعلم، ومن المستحيل أن نحكم على تصرفاته من هذا القادم؟"

صاحت بقلق شديد وهي تنظر إلى الشارع المظلم: "أوه، إنه أخي (موردونت)"

نادت عليه وبينما كان الشاب يقترب منا قال بلطف:

"أعتذر للسيد (ويست) عما حدث بالأمس، باسمك وكذلك باسمي وأنا سعيد للغاية لأنني أتيحت لي الفرصة للقيام بذلك".

ثم استطرد: "كنت أتمنى فقط أن أرى أختك ووالدك كما رأيتك، لأخبرهما عن مدى أسفي، أعتقد أنه من الأفضل أن تعودي إلى المنزل أيتها الصغيرة لأنه اقترب وقت الغداء..

لا، لا تذهب (سيد ويست)؛ أريد أن أتكلم معك".

لوحت الآنسة (هيذرستون) بيدها بابتسامة مشرقة، وتعثرت في الطريق، بينما قام أخوها بفتح البوابة ثم أغلقها مرة أخرى من الخارج.

"سوف أتجول معك في الطريق، إذا لم يكن لديك اعتراض. هل لديك مانيلا؟ "

وأخرج بضع سجائر كروس من جيبه وسلم لي واحدة وقال: "ستجد أنها ليست سيئة، أصبحت متذوقاً في التبغ عندما كنت في الهند. آمل ألا أعطلك عن شئونك بالتمشية معك؟ "

أجبت: "لا على الإطلاق، أنا سعيد جداً بصحبتك."

قال رفيقي: "سأخبرك بسر، هذه هي المرة الأولى التي أكون فيها خارج الأسوار منذ أن جئنا إلى هنا."

سألته: "وأختك؟ "

أجاب: "إنها لم تخرج أبداً، لقد منحتها تصريحًا اليوم، ولكنه إذا علم بذلك فلن يمنحها نصف ذلك التصريح، لقد كان مبدأه منه أننا يجب أن نحتفظ بأنفسنا بالكامل لأنفسنا، بعض الناس يسمونه تشددٌ، ولكن من جهتي لدي سبب للاعتقاد بأن لديه أسبابًا قوية لكل ما يفعله على الرغم من أنه ربما يكون صارمًا بعض الشيء حول هذا الأمر."

قلت: "بالتأكيد أنت تشعر بالوحدة، ألا يمكنك أن تمر عليَّ بعض الأحيان وتدخن معي؟ هذا المنزل الذي تحت اسم (برانكسوم)".

أجاب بعيون متلألئة: "في الواقع أنت لطيف جداً، أود بشدة أن أخرج بين الحين والآخر، باستثناء (إسرائيل ستاكيس) البستاني والسائس، ليس لدي إنسان يمكنني التحدث معه."

قلت: "وأختك، من المؤكد أنها تشعر بالوحدة أكثر منك"..وخطر لقلبي أن معرفتي الجديدة زادت من مشاكله الخاصة، وستقلل من مرافقته لي.

أجاب بلا مبالاة: "نعم، المسكينة (غابرييل) تشعر بذلك بلا شك، ولكن الأمر غير الطبيعي بالنسبة للشاب في عمري أن يسجن بهذه الطريقة أكثر مما يحدث لامرأة. انظر إليّ الآن؛ سأتم في مارس

المقبل ثلاثة وعشرين عامًا، ومع ذلك لم أذهب أبدًا إلى جامعة ولا إلى مدرسة، أنا جاهل تمامًا مثل أي واحد من هؤلاء المتسكعين، يبدو الأمر غريبًا بالنسبة لك بلا شك ومع ذلك فقد حدث.

الآن، ألا تعتقد أنني أستحق مصيرًا أفضل؟ "

توقف بينما كان يتحدث ثم مدَّ راحَتيّ يديه إلى الأمام رغبة في استئناف السير.

عندما نظرت إليه، مع سطوع الشمس على وجهه، بدا بالتأكيد وكأنه طائر غريب يتم احتجازه في مثل هذا القفص. طويل القامة مفتول العضلات، ذو وجه غامق وقسمات حادة ودقيقة. كانت هناك طاقة وقوة كامنة في فمه الثابت، وحاجبيه المربعتين، مما يعبر عن شخصيته المرنة والمتماسكة جيدًا.

قلت بحماس:

"هناك العلم الذي يجب أن نحصل عليه من الكتب، والعلم الذي نحصل عليه من التجربة، إذا كان نصيبك قليلاً من أحدهما، فربما يصبح نصيبك أكبر في الآخر، لا أستطيع أن أصدِّق أنك قضيت كل حياتك في الكسل والمتعة فقط بكل سرور ! "

صرخَ: "المتعة ! انظر إلى هذا ! " خلعَ قبعته ورأيت أن شعره الأسود كان متقطعًا بخطوط رمادية !

"هل تتخيل أن هذا جاء من المتعة؟ "سأل بضحكة مريرة.

فقلت مندهشًا من المشهد: "لا بُدَّ أنك تعرضت لصدمة كبيرة أو بعض الأمراض الرهيبة في شبابك، أو ربما ينشأ عن سببٍ مُزمِن -مثل قلق مزعج مستمر -لقد عرفت شباباً مثلك كان شعرهم رمادياً. "

"الفقراء المتوحشون ! "قاطعني: "أنا أشفق عليهم."

قلت له: "إذا تمكنت من المرور على (برانكسوم) في بعض الأحيان، ربما يمكنك إحضار الآنسة هيذرستون معك، أعلم أن والدي وأختي سيكونان سعيدين برؤيتها إذا كان تغيير الجو ساعة أو ساعتين قد يفيدها "

فأجاب: "سيكون من الصعب علينا أن نبتعد معًا، ومع ذلك إذا سنحت فرصة فسوف أجلبها معي ربما يمكن بعد ظُهر أحد الأيام؛ لأن الرجل العجوز ينغمس في قيلولة من حين لآخر".

كنا قد وصلنا إلى رأس الممر المتعرج الذي يتفرع من الطريق السريع ويؤدي إلى منزل اللورد؛ لذلك انسحب رفيقي.

قال فجأة:

"يجب أن أعود، وإلا سيفتقدونني.. إنه لطفٌ منك سيد (ويست) أن تهتم بنا، أنا ممتن جداً لك وكذلك (غابرييل) عندما تسمع بدعوتك اللطيفة، لقد كانت غاضبة للغاية بعد أن وضع أبي تلك اللافتة اللعينة."

صافح يدي وانطلق على الطريق لكنه جاء يركض ورائي لاحقاً ويدعوني للتوقف، ثم قال:

"كنت أفكر فقط، يجب أن تعتبرنا لغزًا كبيرًا هناك في كلومبر، أجرؤ على القول أنك تنظر إليه على أنه لجوء مجنون ولا يمكنني إلقاء اللوم عليك، إذا كنت مهتمًّا بالأمر فأنا أشعر أنه من غير المرغوب من جهتي عدم إرضاء فضولك لكنني وعدت والدي أن أكون صامتاً بشأنه. وفي الواقع إذا كنت سأخبرك بكل ما أعرفه فقد لا تكون حكيمًا بالدرجة المطلوبة، أودُّ أن أفهمك -مع ذلك - أن والدي عاقل مثلك ومثلي، ولديه أسباب وجيهة للغاية لعيش الحياة التي يحياها. يمكنني أن أضيف أن رغبته في البقاء منعزلاً لا تنشأ من أي دوافع غير جديرة بالشرف أو غير شريفة، ولكن فقط من غريزة الحفاظ على الذات".

"إنه في خطر إذاً؟ "سألته.

"نعم.. إنه في خطر دائم".

"لكن لماذا لا يتقدم بطلب إلى القضاة من أجل الحماية؟ " عدت أسأله.

"إذا كان خائفاً من أي شخصٍ، فعليه أن يسميه فقط وسوف يقبضون عليه للحفاظ على سلامته".. قال الشاب (هيذرستون):

"عزيزي (ويست) الخطر الذي يتعرض له والدي هو خطر لا يمكن تفاديه من قبل أي تدخل بشري. إنه ليس أقل واقعية وربما وشيكًا جداً".

قلت بشكل غير مصدق: "أنت لا تقصد أن تقول إنه شيءٌ خارق للطبيعة!".

أجاب بتردد: "حسناً، بالكاد أستطيع تأكيد ذلك". وتابع: "لقد قلت أكثر مما ينبغي، لكنني أعلم أنك لن تسيء استغلال ثقتي.. وداعًا!"

مشى سريعًا وسرعان ما أصبح بعيداً عن الأنظار حول منحنى في طريق البلد.

خطر حقيقي ووشيك، لا يجب تجنُّبه بالوسائل البشرية، ولكن بالكاد خارق للطبيعة - هنا اللغز بالفعل!

لقد جئت لأنظر إلى سكان القاعة على أنهم مجرد غريبي الأطوار، ولكن بعد ما أخبرني به الشاب موردونت هيذرستون لم يعد بإمكاني الشك في أن بعض المعاني المظلمة والشريرة تكمن وراء كل أفعالهم. كلما فكرت مليًا في المشكلة، ظهرت أكثر أنها غير قابلة للحل، ومع ذلك لم أتمكن من التوقف عن التفكير بشأنها.

المبنى الوحيد المعزول، والكارثة الغريبة الوشيكة المرتبطة بنزلائه ألحت بقوة على مخيلتي طوال ذلك المساء، وفي وقت متأخر من الليل جلست بالقرب من نار المدفأة وأنا أفكر فيما سمعته وتدور في ذهني الحوادث المختلفة التي قد تزودني ببعض الأدلة لكشف غموض تلك العائلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

(أربعة في ظل كلومبر)

أنا واثق من أن قرَّائي لن يعتبروني كشخص مشغول فضولي عندما أقول أنه مع مرور الأيام والأسابيع، وجدت انتباهي وأفكاري أكثر فأكثر منجذبة للجنرال هيذرستون والغموض الذي أحاط به.

لقد سعيت حثيثاً وباهتمام صارم بشؤون الجنرال لتوجيه ذهني إلى أشياء أكثر أهمية. أفعل ما سأفعله، على الأرض أو على الماء، ما زلت أجد نفسي محتارًا حول هذا السؤال، حتى شعرت أنه من غير المُجدي بالنسبة لي محاولة عمل أي شيء حتى فكرت في بعض الحلول المرضية لها.

لم أتمكن أبداً من تجاوُز الخط المظلم للسور ذي الخمس أقدام، والبوابة الحديدية الكبيرة، بقفلها الضخم، دون التوقف مؤقتاً وعقلي يتساءل عن السر الذي تم إغلاقه بواسطة هذا الحاجز الغامض.

ومع ذلك، مع كل تخميناتي وكل ملاحظاتي، لم أتمكن أبداً من الوصول إلى أي استنتاج يمكن قبوله للحظة كشرح للحقائق.

كانت أختي في نزهة في إحدى الليالي، تزور فلاحًا مريضًا أو تقوم ببعض الأعمال الخيرية العديدة التي جعلتها محبوبة من الريف بأكمله.

عندما عادت قالت: "جون، هل رأيت قاعة كلومبر في الليل؟"

أجبت "لا"، واضعًا الكتاب الذي كنت أقرأه. "ليس منذ تلك الأمسية التي لا تنسى عندما أتى الجنرال والسيد مكنيل للقيام بالتفتيش."

"حسناً، جون، هل سترتدي قبعتك وتذهب معي قليلاً؟"

استطعت أن أرى بأسلوبها أن شيئاً قد أثارها أو أخافها. "لماذا تتوسل الفتاة!" صرخت بصخب، "ما الأمر؟ القاعة القديمة ليست مشتعلة بالتأكيد؟ أنتِ تبدين منزعجة كما لو أن ويجتاون بأسرها تحترق".

قالت وهي تبتسم: "ليست بهذا السوء، لكن هناك أمرًا ما أحب أن تراه."

لقد امتنعت دائمًا عن قول أي شيء قد يزعج أختي، حتى إنها لا تعرف شيئاً عن اهتمامي المرضي بحال جيراننا.

بناء على طلبها أخذت قبعتي وتبعتها في الظلام. قادتني إلى الطريق على طول ممر صغير فوق المستنقع، ثم اتجهنا إلى بعض التلال، التي يمكن أن ننظر من فوقها إلى القاعة دون أن يعيق رؤيتنا أشجار التنوب التي زرعت حولها. "انظر إلى ذلك!" قالت أختي وهي تتوقف على قمة ربوة صغيرة.

كان مبنى كلومبر يشع منه النور!

في الطوابق السفلية، تحجب المصاريع الإضاءة، ولكن في العلية، من النوافذ العريضة للطابق الثاني إلى الشقوق الرفيعة في قمة البرج، لم تكن هناك فجوة أو فتحة لا ترسل تيارًا من الضوء الباهر.

كان التأثير المبهر هو أنني اقتنعت للحظة أن المنزل مشتعل بالنار، لكن ثبات الضوء ووضوحه سرعان ما حررني من هذا الخوف، كان من الواضح أنه نتيجة العديد من المصابيح التي تم وضعها بشكل منهجي في جميع أنحاء المبنى.

إضافة إلى التأثير الغريب أن جميع هذه الغُرَف المضاءة ببراعة كانت مهجورة على ما يبدو، وبعضها -بقدر حكمنا عليها من تلك المسافة- لم يتم تأثيثه.

في جميع أنحاء المنزل الكبير لم تكن هناك أي إشارة على الحركة أو الحياة -لا شيء سوى الطوفان الواضح للضوء الأصفر.

كنت لا أزال أتعجب من الرؤية عندما سمعت تنهدًا قصيرًا وسريعًا إلى جانبي.

"ما الأمر (إستير)، عزيزتي؟" سألت وأنا أنظر إلى رفيقتي.

قالت:

"أشعر بالخوف الشديد. أوه، (جون)، (جون)، خذني إلى المنزل، أشعر بالخوف الشديد!"

تمسكت بذراعي، وسحبت معطفي في نوبة من الخوف، قلت لها بهدوء:

"كل شيء آمن يا عزيزتي لا يوجد داع للخوف، ما الذي أزعجك؟"

"أنا خائفة منهم يا جون، أنا خائفة من آل هيذرستون؛ لماذا يضيء منزلهم هكذا كل ليلة؟ لقد سمعت من الآخرين أنه دائمًا ما يكون كذلك، ولماذا يصبح الرجل العجوز أرنبًا خائفًا إذا زارَهُ أحدٌ؟ هناك أمرٌ مريبٌ في ذلك يا (جون) وهو ما يخيفني."

حاولت تهدئتها قدر استطاعتي، وقدتها إلى المنزل معي، حيث حرصت على أن يكون لديها بعضٌ من شراب النيجوس([9]) الساخن قبل الذهاب إلى الفراش. تجنبت موضوع (هيذرستون)خوفاً من إثارتها، ولم تعد إليه من نفسها.

ومع ذلك، كنت مقتنعًا مما سمعته منها، أنها كانت لبعض الوقت تقوم بملاحظاتها الخاصة على جيراننا، وأنها بذلك ضغطت ضغطًا كبيرًا على أعصابها.

استطعت تخمين أن مجرد إضاءة القاعة ليلاً لم يكن كافيًا لإثارة غضبها الشديد، وأنه يجب أن يكون قد استمد أهميته في عينيها من كونها واحدة في سلسلة من الحوادث التي تركت جميعها انطباعًا غريبًا أو غير سار على تفكيرها.

كان هذا هو الاستنتاج الذي توصلت إليه في ذلك الوقت، ولدي سبب لذلك.

أعرف الآن أنني كنت على حقَ، وأن أختي كان لديها سببٌ أكثر مما كان لدي لنفسي للاعتقاد بأن هناك شيئاً غريباً عن مستأجري كلومبر.

قد يكون اهتمامُنا بالمسألة قد نشأ في البداية من الفضول لا أكثر، ولكن الأحداث سرعان ما أخذت منعطفاً ربطنا بشكلٍ وثيقٍ مع مخاوف عائلة هيذرستون!

استفاد (موردونت) من دعوتي للخروج من منزل الجنرال، وفي عدة مناسبات أحضر معه أخته الجميلة، كان أربعتنا يتجولون على الممرات أو ربما إذا كان اليوم جيداً نقوم بالإبحار على زورقنا الصغير ودخول البحر الآيرلندي.

في مثل هذه الرحلات كان الأخ والأخت مرحين وسعداء مثل طفلين، كان من دواعي سرورهما أن يهربا من حصنهم المنيع، وأن يريا -ولو لبضع ساعات- وجوهًا ودودة ومتعاطفة حولهما.

يمكن أن تكون هناك نتيجة واحدة فقط عندما يتم الجمع بين أربعة شباب في الجماع المحظور والممنوع. تحول التعارف إلى صداقة، وتحولت الصداقة سريعًا إلى حب!

عزيزتي (غابرييل) تجلس بجانبي الآن وأنا أكتب، وهي تتفق معي في أنه قصة حبنا المتبادل ذات طابع شخصي للغاية لدرجة لا يمكن التطرق إليها في هذه الرواية، يكفي أن نقول أنه في غضون أسابيع قليلة من لقائنا الأول، فاز (موردونت هيذرستون) بقلب أختي العزيزة، وقد أعطتني (غابرييل) هذا العهد الذي لن يتمكن الموت نفسه من كسره.

لقد ألمحت بهذه الطريقة الوجيزة إلى الرابط المزدوج الذي نشأ بين العائلتين؛ لأنني لا أتمنى أن يتحول هذا السرد إلى أي شيء يقترب من الرومانسية، أو أن أفقد خيط الحقائق التي وضعتها لنفسي لترتيب الأحداث المرتبطة بالجنرال هيذرستون، وأن أتوجه بشكل غير مباشر إلى تاريخي الشخصي.

يكفي أن أقول إنه بعد ارتباطنا أصبحت زيارات برانكسوم أكثر تكرارًا، وكان أصدقاؤنا قادرين في بعض الأحيان على قضاء يوم كامل معنا عندما يذهب الجنرال إلى ويجتاون لقضاء بعض الأعمال، أو عندما يحتجزه النقرس في غرفته.

أما والدنا الصالح، فقد كان على استعداد دائم لتحيتنا بالعديد من الدعابات الصغيرة والاقتباسات من القصائد الشرقية الملائمة لهذه المناسبة، فلم يكن لدينا أسرار نخفيها عنه وقد نظر إلينا جميعًا كأولاده.

كانت هناك أوقات تغيب فيها (غابرييل) أو (موردونت) عن الظهور بالجوار لفترة تصل إلى أسبوع، بسبب المزاج غير المستقر للجنرال وشكه المستمر فيهما؛ حتى إن الرجل العجوز كان يقف على أهبة الاستعداد كحارس خفي وصامت، عند بوابة الشارع، أو يسرع ذهابًا وإيابًا بالسيارة كما لو كان يشك في أن محاولات تتم لاختراق لخلوته.

في إحدى الأمسيات رأيت صورته القاتمة تتأرجح في ظِلَّ الأشجار، ولمحت وجهه الجامد يحدق في وجهي بشكل مريب من وراء القضبان.

غالباً ما كان قلبي يحزن عليه لأنني لاحظت حركاته العصبية، ونظراته الزائغة وخصائصه المتشنجة.

من كان يعتقد أن هذا المخلوق المُحطَّم المتداعي كان في السابق ضابطًا مخضرمًا، خاض معارك بلاده وفاز بأوسمة الشجاعة متفوقاً على مجموعة من الرجال الشجعان من حوله؟

على الرغم من يقظة الجندي القديم، تمكَّنَّا من التواصل مع أصدقائنا.

مباشرة خلف المبنى كان هناك مكانٌ تمَّت فيه إقامة السياج بلا مبالاة بحيث يمكن إزالة اثنين من الألواح الخشبية دون صعوبة، مما يترك فجوة واسعة أتاحت لنا الفرصة لإجراء مقابلات مسروقة، على الرغم من أنها كانت بالضرورة قصيرة إلا أن حركات الجنرال كانت مرتابةً، ولم نأمن قَط زياراته المفاجئة.

يا لهذه الاجتماعات المتعجلة التي لا أستطيع نسيانها! تبرز بشكل واضح ومتميز وسط الحوادث الغامضة التي أدت إلى الكارثة الرهيبة التي ألقت بظلالها على حياتنا.

أتذكر أنني عندما كنت أمشي في الحقول، كان العشب رطباً مع أمطار الصباح، وكان الهواء ثقيلاً برائحة الأرض البكر المبللة، كانت (غابرييل) تنتظرني تحت شجرة الزعرور خارج الفجوة ونقف يداً بيد وننظر إلى الأسفل حيث مجرى طويل من المستنقعات، وفي القناة الزرقاء العريضة التي تحيط بحوافها الرغاوي المتأججة.

بعيداً في الشمال الغربي تلمع الشمس على قمة جبل ثروستون. من حيث وقفنا يمكننا رؤية دخان البواخر وهي تبحر على طول الطريق المائي الزاخر الذي يؤدي إلى بلفاست ([10]).

"أليست رائعة؟ "قالت (غابرييل) وهي تحتضن بيديها ذراعي. "آه، (جون)، لماذا لسنا أحرارًا في الإبحار فوق هذه الأمواج معًا، وترك كل مشاكلنا وراءنا على الشاطئ؟ "

"وما هي المشاكل التي ستتركينها خلفك.. عزيزتي؟ "سألتها.

"ألا يمكنني أن أعرفها، وأساعدك على تحملها؟ "

أجابت:

"ليس لدي أسرار أخفيها عليك جون؛ إن مشكلتنا الرئيسية هي -كما يمكنك أن تتخيل- سلوك والدنا الغريب، أليس من المحزن بالنسبة لنا جميعًا أن يصبح الرجل الذي لعب دورًا مميزًا في هذا العالم متنقلاً إلى مكان منعزل من بلد إلى آخر، ويجب أن يعزل نفسه مع الأقفال والحواجز كما لو كان لصًا خطيرًا يهرب من العدالة؟ هذه مشكلة يا (جون)، وهي خارجة عن إرادتك الطيبة للتخفيف عني."

"ولكن لماذا يفعل ذلك يا (غابرييل)؟ "سألتها.

أجابت بصراحة: "لا أستطيع أن أقول".

"أعرف فقط أنه يتخيل خطرًا مميتاً يترصده، وأن هذا الخطر قد تكبَّده أثناء إقامته في الهند. ما هي طبيعته؟ قد لا يكون لدي أي فكرة عنه."

فقلت لها:

"ثم أخوك، أنا متأكد من الطريقة التي تحدَّث معي بها في يوم من الأيام أنه يعرف ما هو، وأنه ينظر إليه على أنه حقيقية."

أجابت: "نعم، إنه يعرف وكذلك والدتي لكنهم يخفون عني دائمًا؛ والدي المسكين عصبي للغاية في الوقت الحاضر، وهو ليلاً ونهارًا في حالة من القلق، لكن قريباً سيأتي الخامس من أكتوبر، وبعد ذلك سيكون في سلامٍ."

"كيف تعرفين ذلك؟" سألت فجأة.

أجابت سريعًا:

"بالتجربة؛ في الخامس من (أكتوبر)، كانت هذه المخاوف من قدومه وكأنه أزمة.. ولسنوات عديدة كان معتاداً على غَلْقِ الباب عليّ وعلى (موردونت) في غرَفِنا في ذلك التاريخ حتى لا تكون لدينا أيُّ فكرةٍ عما يحدث، ولكننا دائمًا نجد أنه يشعر بارتياحٍ كبيرٍ بعد ذلك ويستمر في سلام نسبي حتى يبدأ ذلك اليوم في الاقتراب!"

لاحظت أن شهر سبتمبر يقترب من نهايته: "إذاً أمامك عشرة أيام فقط أو نحو ذلك للانتظار؟ بالمناسبة، عزيزتي، لماذا تضاء جميع غرفكم في الليل؟"

"هل لاحظت ذلك؟" قالت. "ذلك أيضًا بسبب مخاوف والدي؛ إنه لا يحب أن يكون هناك ركن مظلم في المنزل بأكمله، فيمشي في الليل ويفحص كلَّ شيءٍ من العلية وصولاً إلى الأقبية، لديه مصابيح كبيرة في كل غرفة ومَمرٍّ حتى الفارغ منها ويأمر الخدم بإشعالهم جميعًا عند الغسق."

قلت ضاحكاً: "أنا متفاجئ لأنك تمكنت من الاحتفاظ بخدامك؛ فالخادمات في هذه المناطق فئةٌ مخرِّفة، ومخيلتهن متحمسة بسهولة لأي شيء لا يفهمنه".

"الطاهي ومدبرتا المنازل من لندن، وقد تكيفوا مع عاداتنا الغريبة، نحن ندفع لهم بسخاء للغاية للتعويض عن أي إزعاج قد يتعرضون له، (إسرائيل ستاكيس) البستاني هو الوحيد الذي أتي من هذا الجزء من البلاد ويبدو أنه صلب ونزيه لا يخاف بسهولة."

قلت: "أيتها الفتاة المسكينة"، نظرتُ إلى جسدها النحيف والرشيق بجانبي "هذا ليس جوًا مناسباً لك للعيش فيه، لماذا لا تسمحين لي بإنقاذك منه؟ لماذا لا تسمحين لي بالذهاب مباشرة وأطلب من الجنرال يدك؟ في أسوأ الأحوال يمكنه أن يرفض فقط."

شحب وجهها وبدا عليها الفزع وهي تصرخ بجدية:

"بحق السماء، لا تفعل شيئاً من هذا القبيل؛ سيجمع أمتعتنا ليلاً وفي غضون أسبوع نستقر مرة أخرى في مكان آخر منعزل؛ حيث لا يكون لدي أبداً فرصة لرؤيتك أو سماعك مرة أخرى، علاوة على ذلك، لن يغفر لنا أبداً بسبب مغامرتنا."

عارضتُها قائلاً: "لا أعتقد أنه رجلٌ صعب المراس، لقد رأيت نظرة لطيفة في عينيه، على الرغم من وجهه الصارم."

أجابت:

"يمكن أن يكون أكثر الآباء حناناً في الدنيا، لكنه فظيع عند معارضته أو إحباطه. لم ترَه من قبل، وأنا أثق أنك لا تريد أن تفعل ذلك أبداً. لقد جعلت منه قوة إرادته ونفادُ صبرِه على معارضيه ضابطًا رائعًا. أؤكد لك أن كل واحد في الهند كان يقدِّره، وكان الجنود يخافون منه لكنهم كانوا يتبعونه في أي مكان."

"ثم أصيب بتلك النوبات العصبية بعد ذلك؟" سألتها.

"في بعض الأحيان ولكن ليس بشكلٍ حادٍّ تقريباً. يبدو أنه يعتقد أن الخطر - مهما كان - يصبح وشيكًا كل عام. أوه، (جون)، إنه لأمر فظيع أن تنتظر هذا مثل السيف على رؤوسنا، والأفظع بالنسبة لي أنه ليس لدي أي فكرة من أين تأتي الضربة."

قلت: "عزيزتي (غابرييل)"، أمسكت بيدها ووضعتها إلى جانبي، "انظري إلى كل هذا الريف اللطيف، والبحر الأزرق الواسع. أليس هذا كله هادئاً وجميلاً؟ في هذه الأكواخ، ذات الأسطح القرميدية المتلألئة للخروج من هذه المنطقة الرمادية، لا يعيش سوى الرجال البسطاء الذين يخافون الله، الذين يكافحون بشدة في حرفتهم ولا يحملون العداء لأي إنسان، على بُعد سبعة أميالٍ منّا مدينة كبيرة، بها جهاز متحضِّر للحفاظ على النظام. على بُعد عشرة أميال، توجد حامية مؤجَّرة، في حال وصول برقية إليها بإمكانها في أي وقتٍ إرسال سَرية من الجنود. الآن.. أسألكِ عزيزتي باسم الفطرة السليمة، ما الخطر الذي يمكن أن يهددك في هذا الحي المنعزل، مع وسائل المساعدة القريبة جداً؟ أنت تؤكدين لي أن الخطر غير مرتبط بصحة والدك أليس كذلك؟"

"لا، أنا متأكدة من ذلك. صحيح أن دكتور (إيسترلنغ) من (سترانرير)، قد قام برؤيته مرة أو مرتين، ولكن ذلك كان فقط بسبب بعض التعب البسيط، يمكنني أن أؤكد لك أن الخطر ليس من هذا الاتجاه."

قلت ضاحكًا "إذاً يمكنني أن أؤكد لك أنه لا يوجد خطر على الإطلاق. ربما هناك بعض الهوس الغريب أو الهلوسة، لا توجد فرضية أخرى ستفسر الحقائق".

"هل يمكن أن تتسبب المونومانيا ([11]) في التأثير على والدي من ناحية أن شعر أخي يتحول إلى اللون الرمادي، وأن والدتي تخسر وزنها بطريقة متزايدة؟"

أجبت: "بلا شك؛ القلق المستمر منذ فترة طويلة إضافة إلى طبيعة الجنرال العصبية سيؤدي إلى تلك الآثار على طبيعته الحساسة."

"لا لا!" قالت وهي تهز رأسها بحزن: "لقد تعرّضت لضيقه وعصبيته، لكن لم يكن لديهم هذا التأثير عليَّ، الفرق بيننا يكمن في حقيقة أنهم يعرفون هذا السر الفظيع وأنا لا أعرف."

قلت:

"يا فتاتي العزيزة، لقد ولَّت أيام ظهور الأشباح وما شابهها، ولا أحد يستحوذ عليه الجن هذه الأيام؛ لذا يمكننا طرح هذا الافتراض جانباً، بعد القيام بذلك ماذا بقي؟ لا يوجد على الإطلاق نظرية أخرى يمكن حتى اقتراحها. صدقيني اللغز كله هو أن حرارة الهند لم يتحملها رأس والدك المسكين."

همت بالإجابة، ولكن لم تستطع التفوه بها؛ لأنه في تلك اللحظة بدت كما لو أن صوتي لم يصل أذنها، وأخذت تتلفت حولها بشكلٍ مخيفٍ، رأيت فجأة أن ملامحها أصبحت جامدة وعينيها ثابتتان وجاحظتان عن آخرهما.

وعند اتجاه نظرتها، شعرت بإثارة مفاجئة وخوف شديد من خلال إدراكي لوجه بشري يراقبنا من وراء إحدى الأشجار - وجه رجل بدا بسبب الكراهية والغضب خبيثاً، وعندما تأكد أننا رأيناه، خرج وتقدم نحونا لأكتشف أنه ليس سوى الجنرال نفسه، كانت سحنته عامرة بالغضب وتوهجت عيناه العميقتان من تحت أغطية جفونه المتعرقة وهما تلمعان بطريقة شيطانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

(أصبحت أحد حماة كلومبر!)

"إلى غرفتك، يا فتاة!" صرخ بصوت أجش وقاسٍ ثم دخل بيننا وأشار لها نحو المنزل.

انتظر حتى ذهبت غابرييل مسدداً نظرة غاضبة مرَّت عبر الفجوة التي خرجت منها بتعبير قاتل على وجهه لدرجة أنني تراجعت لخطوة أو اثنتين، وشددت قبضتي على عصا من البلوط كانت بجواري.

"أنت -أنت" تكلم بصوت حانق ويدين مرتعشتين كما لو أن غضبه كان يخنقه.

"لقد تجرأت بالتطفل على خصوصيتي! هل تعتقد أنني قمت ببناء هذا السور حتى تتجمع جميع الحشرات في البلد حوله؟ أوه، لقد كنت قريباً جداً من موتك يا رفيقي الجيد! لن تكون أقرب من الموت من هذه المرة، انظر إلى هذا!" أخرج مسدسًا غليظًا من طيات ثيابه.

"إذا كنت قد تجاوزت تلك الفجوة وخطوت على أرضي، فسوف أخترقك برصاص سلاحي، لن أكون ساعتها همجياً أعرف كيفية التعامل مع طبقة النبلاء من هذا النوع، سواء كانت وجوههم سوداء أو بيضاء."

قلت له:

"سيدي.. لم أقصد أي ضرر بالمجيء إلى هنا، ولا أعرف كيف أستحق هذا الغضب غير العادي. اسمح لي أن ألفت انتباهك إلى أنك لا زلت تصوب مسدسك نحوي، وبما أن يدك مرتجفة إلى حدٍّ ما، فمن الممكن أن تضغط على الزناد دون أن تشعر. إذا لم تعد الزناد فسأضطر للدفاع عن نفسي وضربك على معصمك بهذه العصا."

وسأل بصوت أكثر تعقيداً: "ما الذي أحضرك إلى هنا؟" معيداً السلاح مرة أخرى إلى حزامه "ألا يمكن أن يعيش الرجل بهدوء دون أن يأتي إليه المتطفلون وكثيرو الكلام؟ أليس لديك عمل لتعتني به؟ وابنتي؟ كيف تعرفت عليها؟ وماذا كنت تحاول أن تعرف منها؟ لم تكن الصدفة ما أحضرك إلى هنا.."

فقلت بجرأة:

"لا، لم تكن الصدفة هي ما أتى بي إلى هنا. لقد أتيحت لي العديد من الفرص لرؤية ابنتك وتقدير العديد من صفاتها النبيلة. نحن مرتبطين كي نتزوج، وقد جئت إلى هنا بنية صريحة لرؤيتها."

بدلاً من أن يستشيط غضباً كما توقعت، أعطى الجنرال صافرة طويلة من الدهشة، ثم انحنى على السور، يضحك بهدوء وعلق في نهاية الأمر بقوله:

"الكلاب الإنجليزية مغرمة بالديدان؛ عندما جلبتهم إلى الهند اعتادوا على الهرولة إلى الغابة والبدء في استكشاف ما تخيلوا أنه ديدان هناك، ولكن تبين أن الدودة كانت ثعباناً سامًا، وبالتالي لم يعد الكلب المسكين يلعب أكثر، أعتقد أنك سوف تجد نفسك في وضع مشابه إلى حدٍّ ما إن لم تهتم بنفسك بأخذ الحيطة."

"بالتأكيد لا تقصد إصدار هذا التشبيه على ابنتك؟ "قلت بوجه يستشيط احمرارًا من السخط.

أجاب بلا مبالاة:

"أوه، غابرييل كانت على حق، إن أسرتنا ليست أسرة واحدة بالضبط، وكان ينبغي أن أوصي بها شاباً ليتزوجها، ولكن كيف لم يتم إعلامي بهذا الترتيب الصغير الخاص بكما؟ "

أجبت:

"كنا خائفين يا سيدي أن تفرقوا بيننا".. وشعرت أن الصراحة المثالية هي أفضل سياسة في ظل هذه الظروف.

"مِن المحتمل أننا قد أخطأنا قبل أن نتوصل إلى أي قرار نهائي، أتوسل إليك أن تتذكر أن سعادة كلينا على المحكّ، إنك في وسعك أن تفرق أجسادنا، لكن أرواحنا ستكون موحَّدة إلى الأبد."

قال الجنرال بلهجة غير لائقة: "يا صديقي الطيب، أنت لا تعرف ما تطلبه، هناك فجوة لا يمكن ردمها بينك وبين أي من دم (هيذرستون)."

اختفى كل أثر للغضب الآن من أسلوبه، وحل مكانه جوٌّ من السخرية المزعجة إلى حدٍّ ما.

وكأن كلماته أطلقت النار على شرف عائلتي...

"قد تكون الفجوة أقل مما تتخيل "قلت ببرود.

"نحن لسنا فلاحين لأننا نعيش في هذا المكان البعيد عن المدنية. أنا من أصلٍ نبيل من جانب والدي، وكانت والدتي من عائلة بوكان العريقة. أؤكد لك أنه لا يوجد بيننا هذا التفاوت الشاسع كما تتخيل."

أجاب الجنرال:

"أنت تسيء فهمي؛ من جانبنا أن التفاوت يكمن أن هناك أسباباً تجعل ابنتي (غابرييل) تعيش وتموت عزباء، لن يكون من مصلحتك أن تتزوجها."

أجبتُ في إصرار:

"لكن بالتأكيد يا سيدي أنا أحكم بشكل أفضل على اهتماماتي وميولي الخاصة. نظرًا لأنك تأخذ هذا الأمر وكأنه شيءٌ سهلٌ، أؤكد لك أن الاهتمام الوحيد الذي يتجاوز جميع الآخرين هو أنه يجب أن أحصل على المرأة التي أحبها لتصبح زوجتي. إذا كان هذا هو اعتراضك الوحيد على ارتباطنا،

فيمكنك بالتأكيد منحنا موافقتك، لأن أي خطر أو محاكمة قد أتكبدها في الزواج من (غابرييل) لن يزن معي ذرة واحدة."

"هنا بانتام([12]) شاب!" هتف الجندي العجوز وهو يبتسم لحماسي.

"من السهل تحدي الخطر عندما لا تدرك ماهيته."

"ما هو إذاً؟" سألت بحرارة. "لا يوجد خطر دنيوي يمنعني من (غابرييل)، دعني أعرف ما هو واختبرني."

أجاب بحسرة: "لا، لا هذا لن يحدث أبداً"، وبعد ذلك نظر إليَّ بتمعن، كما لو كان يتحدث بعقله قائلاً بصوت عالٍ: "لدينا فتى ناضج ينضح بالشباب والحيوية، سيكون من السيء عدم الاستفادة منه."

انفرد للتحدث مع نفسه مع الشرود الواضح عينيه وكأنه نسي وجودي، ثم قال:

"اسمعني يا سيد (ويست)، ستعذرني إذا تحدثت معك على عجل قبل قليل. هذه هي المرة الثانية التي تتاح لي فيها الفرصة لأعتذر لك عن نفس الخطأ، وأعدك بألا يحدث مرة أخرى. أنا متحامل أكثر من اللازم بلا شك بسبب رغبتي في العزلة الكاملة لكن لدي أسباب جيدة للإصرار على هذه النقطة. عن طريق الخطأ أو الصواب، أدركت في رأسي أنه في يوم من الأيام قد تكون هناك غارة منظمة على أرضي. إذا حدث أي شيء من هذا القبيل أفترض أنني قد أعتمد على مساعدتك؟"

أجبته: "مِن كل قلبي."

"لذا إذا تلقيت رسالة مثل "تعال أو تعال إلى القاعة فستعلم أنها كانت نداء للمساعدة، وستسرع على الفور حتى لو كانت في ساعة متأخرة من الليل؟""

أجبته:

"بالتأكيد يجب عليَّ ذلك، ولكن هل يمكنني أن أسألك ما هي طبيعة الخطر الذي تخشاه؟"

"لن تربح شيئاً من معرفتك؛ في الواقع لن تفهم الأمر كثيرًا إذا أخبرتك، يجب أن أتمنى يومًا جيداً لك الآن؛ لأنني بقيت معك لفترة طويلة جداً. تذكر، أنا أعول عليك كواحد من حماة كلومبر منذ الآن."

قلت على عجل وهو يبتعد: "شيء آخر يا سيدي، آمل ألا تصب غضبك على ابنتك بسبب أي شيء أخبرتك به. إنها أخفت كل شيء عنك من أجل مصلحتها."

قال بابتسامته الباردة الغامضة:

"حسناً، أنا لست قاسياً مع عائلتي كما تظن. فيما يتعلق بطلب الزواج هذا، يجب أن أنصحك كصديق بنسيانه تمامًا، ولكن إن كان ذلك مستحيلاً، فلتدعه معلقاً في الوقت الحالي؛ من المستحيل أن نعرف ما هي الأحداث غير المتوقعة التي قد تقع.. وداعًا."

غاص بين الأشجار وسرعان ما أصبح بعيداً عن الأنظار بين المزارع الكثيفة.

وهكذا انتهت هذه المقابلة غير العادية التي بدأها هذا الرجل الغريب من خلال توجيه مسدس مشحون إلى صدري، وانتهت بالاعتراف الجزئي بإمكانية أن أصبح صهره المستقبلي، لم أكن أعلم إن كان من المفترض أن أخاف، أم أن ابتهج!

فمن ناحية، كان من المحتمل بمراقبة ابنته عن كثب- أن يمنعنا من التواصل بحرية كما فعلنا حتى الآن. ومع ذلك كانت هناك ميزة الحصول على موافقة ضمنية على تجديد طلبي في تاريخ ما في المستقبل. على العموم توصلت إلى استنتاج وأنا أسير في المنزل بأنني قمت بتحسين موقفي بسبب الحادث.

لكن هذا الخطر - هذا الخطر الغامض الذي لا يُوصَف - الذي بدا وكأنه يرتفع في كل منعطف، ويتدلى ليلاً ونهارًا فوق أبراج كلومبر! عاد ليشغل عقلي كما في السابق، ولم أستطع التفكير في أي حلٍ للمشكلة التي لم تكن سهلة أو واضحة.

حقيقة واحدة بدت لي أنها مهمة، لقد أكد لي كل من الأب والابن، بغضّ النظر عن بعضهما البعض، أنه إذا قيل لي ما هو الخطر فلن أدرك أهميته، كم هو غريب أن يكون الخوف لا يمكن التعبير عنه بلغة واضحة!

رفعت يدي في الظلام قبل أن أنام في تلك الليلة، وأقسمت إنه لا ينبغي لأي قوة من الإنس أو الشياطين أن تضعف حبي للمرأة التي خدمني حظي الجيد بالفوز بقلبها النقي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

(وصول العريف روفوس سميث إلى كلومبر)

عند كتابتي هذه القصة، قمت بصياغتها بلغة صريحة وبسيطة عن قصد خوفاً من اتهامي بتلوين روايتي من أجل التأثير.

ومع ذلك، إذا أخبرت قصتي مع أي نهج للواقعية فسوف يفهمني القارئ عندما أقول إنه بحلول هذا الوقت جمعت الأحداث الدرامية التي وقعت وأثارت انتباهي وأثارت خيالي لاستخلاص جميع المواضيع الهامة.

كيف يمكنني أن أتأمل نفسي في ملل بليد لعمل الوكيل، أو أن أرى نفسي أقوم بالتحصيل من مستأجر أو أجمع منه مالاً كضريبة على الصيد بعد أن تعرضت لسلسلة الأحداث التي وصفتها، وما زالت مشغولاً في البحث عن تفسير لها.

ذهبت إلى حيث كنت في الريف، وكنت أرى البرج الأبيض المربع الذي يبرز من بين الأشجار، وتحت هذا البرج كانت هذه العائلة المشؤومة تراقب وتنتظر، وتنتظر وتراقب - ولماذا؟ كان هذا لا يزال السؤال الذي يقف كحاجز لا يمكن عبوره في نهاية قطار افكاري.

بغض النظر عن كونها مجرد مشكلة مجردة، فإن هذا اللغز من عائلة هيذرستون كان لديه سحرٌ غريبٌ حيال ذلك، ولكن عندما أثبتت المرأة التي أحببتها ألف مرة أكثر مما أثبتته أنها مهتمة جداً بالحل، شعرت أنه من المستحيل تحويل أفكاري إلى أي شيءٍ آخر حتى يتم الوصول إلى حلٍ وخروج تلك المشكلة من رأسي.

كان والدي الصالح قد تلقى رسالة من اللورد واردة من نابولي يخبره أنه استفاد كثيرًا من التغيير، وأنه لا ينوي العودة إلى إسكتلندا لبعض الوقت.

كان هذا مُرضيًا لنا جميعًا، لأن والدي قد وجد برانكسوم مكاناً ممتازًا للدراسة لدرجة أنها لتكون تجربة مؤلمة بالنسبة له أن يعود إلى ضوضاء واضطراب المدينة، وبالنسبة لأختي العزيزة ونفسي كانت هناك كما أوضحت - أسبابٌ أقوى تجعلنا نحب ويجتاون.

على الرغم من مقابلتي مع الجنرال - أو ربما يمكنني القول بسبب ذلك - فقد انتهزت الفرصة مرتين على الأقل يومياً للسير نحو كلومبر وإقناع نفسي أن كل شيء على ما يرام.

لقد بدأ بالاستياء من تدخلاتي، لكنه انتهى بأخذي إلى نوع من نصف الثقة، وحتى عن طريق طلب مساعدتي؛ لذلك شعرت أن موقفه معي قد تغير عن السابق، ولذلك كان أقل انزعاجًا من وجودي.

في الواقع، التقيت به وهو يسير حول السياج بعد بضعة أيام، وكان أسلوبه نحوي لطيفاً، على الرغم من أنه لم يلمح إلى محادثتنا السابقة.

بدا أنه لا يزال في حالة عصبية شديدة، تبدأ من وقت لآخر، ويحدق به بشدة وهو ينظر في رعب نحو اليمين واليسار. تمنيت أن تكون ابنته محقة في تسمية الخامس من أكتوبر كنقطة تحول في مصيبته، لأنه كان واضحًا بالنسبة لي عندما نظرت إلى عينيه اللامعتين ويديه المرتجفتين، أن الرجل لا يمكن أن يعيش طويلاً في مثل هذه الحالة من التوتر العصبي.

لقد وجدت بالفحص أنه وضع قضباناً متباعدة مثبتة بإحكام حتى يمنعنا من اختراق مكاننا السابق، وعلى الرغم من أنني تجولت حول جميع أنحاء السياج لم أتمكن من العثور على أي مكانٍ آخر يمكن فيه الدخول.

هنا وهناك بين عددٍ قليل من الثغرات المتبقية في الحاجز، كنت أستطيع أن ألقي لمحات على القاعة، وبمجرد أن رأيت رجلاً في منتصف العمر يبدو قاسياً يقف عند نافذة في الطابق السفلي، من المفترض أن يكون إسرائيل ستاكيس البستاني.

ومع ذلك، لم تكن هناك أي إشارة على وجود غابرييل أو (موردونت)، وأقلقني غيابهما. كنت مقتنعًا أنه لولا الرقابة الصارمة المفروضة عليهما، لكانوا تمكنوا من التواصل مع أختي أو معي.

تزايدت مخاوفي أكثر مع اليوم الذي يليه دون رؤيتهم أو سماع أي شيء منهم.

في صباح أحد الأيام - كان اليوم الثاني من أكتوبر - كنت أسير نحو القاعة، على أمل أن أكون محظوظًا بما يكفي لمعرفة بعض الأخبار عن حبيبتي، عندما لاحظت رجلاً يجلس على حجر على جانب الطريق.

عندما اقتربت منه رأيت أنه غريبٌ، ومن ملابسه المتربة ومظهره المتدهور بدا أنه قد جاء من مسافة بعيدة.

كان لديه قدرٌ كبيرٌ من الخبز على ركبته وسكين مشبك في يده، ولكن يبدو أنه أنهى للتو فطوره، لأنه قام بتفتيت الفتات من حضنه وانتصب واقفاً على قدميه عندما رآني.

عندما لاحظت حجمه الضخم وأنه يحمل سلاحًا، بقيت على الجانب الآخر من الطريق، لأنني كنت أعرف أن العوز يجعل الرجال يائسين وأن السلسلة التي تتلألأ على صدري قد تكون إغراء كبيرًا جداً له على هذا الطريق السريع الوحيد. لقد تأكدت في مخاوفي عندما رأيته يخرج في منتصف الطريق ويعيق تقدمي.

فقلت: "حسناً يا سيدي" بصوت هادئ وقلب خالٍ من الارتياح.

"ماذا يمكنني أن أفعل لك هذا الصباح؟ "

كان وجه الرجل بلون الماهوجني المتقرح بفعل التعرض للطقس، وكان لديه ندبة عميقة من زاوية فمه إلى أذنه، مما لم يحسن مظهره بأي شكلٍ من الأشكال، كان شعره مموجًا، لكن شكله يحوي

بالقوة، ومالت قبعته الفراء على جانب واحد لمنحه مَظهَرًا فاحشًا وشِبه عسكري. بشكلٍ عامٍ، أعطاني انطباعًا بأنني أواجه أحد أخطر أنواع الصعاليك.

بدلاً من الرد على سؤالي، نظر لي لبعض الوقت في صمتٍ بعين قاتمة صفراء اللون، ثم أغلق سكينه بصوت صاخب، وقال: "أنت لست الحاكم بالتأكيد! أنت صغيرًا جداً على ذلك على ما أظن. لقد كنت في (بايسلي) وجئت الآن إلى ويجتاون، وعندما انحدر بي الحال إذا قدَّم أحدهم يدَ المساعدة أنا سوف أجعله يتذكر العريف روفوس سميث! إنه بلدٌ جميل جريء، ولن يقدموا عملاً لرجلٍ ثم يتركونه مشرَّدًا بين التلال دون وسيلة واضحة للعيش."

قلت: "يؤسفني أن أرى جندياً عجوزًا بائسًا هكذا، ما هو السلاح الذي خدمت به؟

"(سلاح الخيالة الملكي) والجميع فيه كان يعرفني ويعرف خدماتي، أنا في الستين من عمري، وأتقاضى معاشًا تقاعدياً كمتسول من ثمانية وثلاثين جنيهًا إسترلينياً وهذا ليس كافياً كي أحصل حتى على الجعة والبسكويت."

قلت: "كان يجب أن أظن أن ثمانية وثلاثين جنيهًا سنوياً ستكون مفيدة لك في شيخوختك".

"أتعتقد ذلك؟" أجاب بسخرية، ودفع وجهه الذي ضربه الطقس إلى الأمام حتى كان على بُعد قدم من وجهي. "كم تسوي الجروح التي حصلت عليها في الحروب؟ ورجلي التي تتأرجح عظامها مثل حَفنة من النرد بعد إصابتها برصاص البنادق. ما قيمة كل هذا، إيه؟ وكبد مثل الإسفنج، والقشعريرة التي تنتاب جسدي من البرد كلما اقتربت الريح باتجاه الشرق - ما هي القيمة الحقيقية لذلك؟ هل ستساوي الكثير مقابل أربعين جنيهًا سنوياً؟"

أجبت "نحن قوم فقراء في هذا الجزء من البلاد، لن تجد رجلاً ثرياً هنا يساعدك."

قال: "إنهم قومٌ أغبياء ولديهم أذواق حمقاء"، وهو يسحب ماسورة سوداء من جيبه ويحشوها بالتبغ. "أنا أعرف ما هو العيش الجيد، وبالطرق الغريبة! بينما لدي شلن في جيبي، أود أن أنفقه على ما يجب أن أنفق الشلن عليه. لقد حارَبْت من أجل بلدي ووطني لم يقدم الكثير لي. سأذهب إلى الروس، إذا ساعدوني، يمكنني أن أريهم كيفية عبور جبال الهيمالايا بحيث يكون من العسير على الأفغان أو البريطانيين توقيفهم. أتعلمْ ثمن هذا السر في سان بطرسبرغ، يا سيد؟"

قلت بخشونة: "أشعر بالخجل عندما أسمع جندياً عظيمًا يتكلم هكذا، حتى على سبيل الدعابة".
"أمزح، حقاً!" صرخ بصوت هادر. "كنت سأفعل ذلك منذ سنوات لو كان الروس ما زالوا يحاربون، سكوبيلوف كان الأفضل من بين المجموعة، ولكن تم استبعاده من الجيش. ومع ذلك، هذا لا طائل منه الآن، ما أريد أن أسألك عنه هو إن سمعت أي شيء في هذه الضيعة عن رجل يدعى هيذرستون، وهو نفسه الذي كان العقيد البنغاليين الـ 41؟ أخبروني في ويجتاون أنه يعيش في مكان منعزل."

قلت له: "إنه يعيش في ذلك المنزل الكبير الذي لم يخطر لك على بال"، مشيرًا إلى برج كلومبر. "ستجد بوابة الشارع بنهاية ذلك الطريق، لكن الجنرال ليس مغرمًا بالزوار."

الجزء الأخير من حديثي لم يسمعه العريف روفوس سميث؛ ففي اللحظة التي أشرت فيها إلى البوابة قام بالجري نحوها.

كان أسلوبه في التقدُّم هو الأكثر تفرداً على الإطلاق؛ لأنه كان يضع قدمَه اليمنى على الأرض مرةً واحدةً فقط في كل ست خطوات بينما كان يجاهد مع الطرف الآخر الذي تجاوزه الأرض بسرعة مذهلة.

لقد تفاجأت للغاية لدرجة أنني وقفت في الطريق على الطريق أحدق بعد هذا الرقم الهائل حتى أدهشني الفكر فجأة؛ بأن بعض النتائج الجادة قد تأتي من لقاءٍ بين رجلٍ له مثل هذا الأسلوب الفظ والجنرال، الذي يتعامل بأسلوب حاد؛ لذلك تابعته وهو يقفز على طول الطريق مثل بعض الطيور الخرقاء، وتجاوزه عند بوابة الجادة، حيث وقف يمسك المشغولات وينظر من خلال محرك عربة الظلام. قلت: "إنه ابن آوى قديم ماكر"، ينظر لي نحوي ويومئ برأسه في اتجاه القاعة. "يا له من كلب عجوز، هذا هو منزله، هل هو بين الأشجار؟" أجبت: "هذا هو بيته، ولكن يجب أن أنصحك أن تكون أكثر عقلانية إذا كنت تنوي التحدث مع الجنرال. فهو ليس رجلاً يقبل بأي هراء."

"أنت على حقٍّ. لقد كان دائمًا من الصعب القضاء عليه. ولكن أليس هذا من نزل إلى الحديقة؟"

نظرت من خلال البوابة ورأيت أنه بالفعل كان الجنرال، الذي كان يرانا أو ينجذب إلى أصواتنا، يسرع باتجاهنا.

وبينما كان يتقدم، كان يتوقف من وقتٍ لآخر وينظر إلينا من خلال الظلِّ المظلِم الذي تلقيه الأشجار، كما لو كان عازمًا على القدوم أم لا.

"إنه متردِّد!" همسَ رفيقي بضحكة خشنة.

"إنه خائف -وأنا أعلم ما الذي يخافه. لن يقع في فخ إذا كان بإمكاني مساعدته، عندما يتعرف عليَّ سيطير نحوي سريعًا، أتراهن على ذلك!"

ثم يقف فجأة على أطراف أصابعه ويلوح بيده عبر قضبان البوابة، وصاح في أعلى صوته: "تعالَ أيها القائد الشجاع! تعالَ! الساحل واضحٌ ولا يوجد عدوٌّ في الأفق".

كان لهذا العنوان المألوف تأثيرٌ على طمأنة الجنرال؛ لأنه جاء لنا بشكل مستقيم، على الرغم من أنني أستطيع أن أقول من خلال لونه الممتقع أن أعصابه كانت في درجة الغليان.

"لماذا، أنت هنا، السيد ويست؟" قال عندما سقطت عينه عليَّ. "ماذا تريد، ولماذا أحضرت هذا الرجل معك؟"

أجبت: "لم أحضره معي، يا سيدي"، وشعرت بالاشمئزاز إلى حدٍّ ما من أن أكون مسؤولاً عن وجود هذا المتشرد الذي لا أعرفه بجانبي. "لقد وجدته على الطريق هنا، وهو يريد أن يقابلك، لذلك أرشدته إلى الطريق. أنا لا أعرفه شخصياً."

"ماذا تريد مني إذا؟" سأل الجنرال بشدة، وانتقل إلى رفيقي. قال العريف السابق متحدثا بصوتٍ متذمر: "لو سمحت يا سيدي."

لمس قبعته من الجلد بتواضع يتناقض بغرابة مع طابعه الخشن السابق في حديثنا، "أنا مدفعجي قديم في خدمة الملكة، سيدي، وعرفت اسمك من خلال سماعه في الهند اعتقدت أنه ربما ستأخذني كخادم أو بستاني، أو أعطني أي مكان آخر يكون شاغرًا".

أجاب الجندي العجوز بشكل حازم: "أنا آسف لأنني لا أستطيع أن أفعل أي شيء من أجلك يا رجل."

قال المتسول الذليل: "ستعطيني القليل فقط لمساعدتي في طريقي يا سيدي، لن ترى الرفيق القديم ينحدر به الحال من أجل عددٍ قليلٍ من الروبيات؟ لقد كنت مع لواء سالي في الممرات، سيدي، وكنت في الاستيلاء الثاني على كابول."

نظر الجنرال هيذرستون بحذرٍ إلى المدَّعي، لكنه كان صامتاً نحو توسُّلاته.

"كنت في (غزنة)([13]) معك عندما هز الزلزال جميع الجدران، وعندما وجدنا أربعين ألف أفغاني يوجهون بنادقهم نحونا.

اسألني عن ذلك، وسترى ما إذا كنت أكذب أم لا. لقد مررنا بكل هذا عندما كنا شباباً، والآن بعد أن كبرنا، ستعيش في منزل واسع، وسأجوع على جانب الطريق. لا يبدو لي هذا عادلاً.

قال الجنرال: "أنت وغدٌ حكيمٌ. إذا كنت جندياً جيداً، فلن تحتاج أبداً إلى طلب المساعدة، لن أعطيك شيئاً.

صرخ الصعلوك: "كلمة واحدة أخرى، سيدي"؛ لأن الجنرال كانت يبتعد عنه، لقد كنت في ممر تارادا".

كما لو كانت الكلمات عبارة عن طلقة مسدس، قال الجندي العجوز متلعثمًا: "ماذا - ماذا تقول؟".

"لقد كنت في ممر تارادا يا سيدي، وكنت أعرف رجلاً هناك يدعى (غولاب شاه)".

همس هذه الكلمات الأخيرة في نبرة غامضة، ونشر ابتسامة خبيثة على وجهه.

كان تأثير تلك الكلمات على الجنرال غير عادي؛ كان قريباً إلى حدٍّ ما من البوابة ثم عاد منها سريعًا، وقد شحب وجهه للغاية. وللحظة كان عاجزًا عن الحديث ثم أخيرًا هتف: "غولاب شاه؟ مَن أنت كي تعرف غولاب شاه؟"

قال المتشرد: "ألقِ نظرة أخرى، إن بصرك ليس ثاقباً كما كان قبل أربعين عامًا."

ألقى الجنرال نظرة طويلة وحادة على المتشرد غير المهذب أمامه، وبينما كان ينظر إلى عينيه، ظهر ضوء الاعتراف في عينيه. "بارك الله روحي!" صرخ "كيف لم أعرفك؟، أنت العريف روفوس سميث."

قال الآخر وهو يضحك على نفسه: "لقد عرفتني في النهاية". "كنت أتساءل كم من الوقت سيستغرق الأمر قبل أن تعرفني. وقبل كل شيء، ما عليك سوى فتح هذه البوابة، أليس كذلك؟ من الصعب التحدُّث من خلال قضبان. إنها تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ عشر دقائق مع زائر في الزنزانات."

قام الجنرال، الذي لا يزال وجهه يحمل أدلة على تشككه، بتفكيك البراغي بأصابع عصبية مرتجفة. كان تخيل العريف روفوس سميث بمثابة ارتياح له، ومع ذلك أظهر بوضوح بأسلوبه أنه يعتبر وجوده بأي حالٍ من الأحوال نعمة غير مخلوطة.

عندما كانت البوابة تفتح قال: "أيها العريف، غالباً ما تساءلت عما إذا كنت ميتاً أو على قيد الحياة، لكنني لم أتوقع رؤيتك مرة أخرى أبداً. كيف كنت طوال هذه السنوات الطويلة؟"

"كيف كنت؟" أجاب العريف بخشونة. "لقد كنت في حالة سُكرٍ في معظم الأحيان. عندما أسحب أموالي أضعها في الخمور وطالما استمررت على ذلك، أحياناً أشعر ببعض السلام في الحياة. على أمل تحصيل ثمن الخمر، وجزئياً من أجل البحث عنك".

قال الجنرال، وهو ينظر في وجهي؛ لأنني بدأت بالابتعاد "ستعذرنا أن نتحدث عن هذه الأمور الخاصة سيد (ويست)، لا تتركنا. أنت تعرف شيئاً من هذا الأمر بالفعل وقد تجد نفسك متورطاً بالكامل معنا في هذا الأمر خلال الأيام القادمة."

نظر العريف روفوس سميث إليَّ في ذهول فارغ قائلاً: "متورطًا معنا؟ ولكن هل وصل إلى هناك؟" وأوضح الجنرال "طوعًا وعن طيبِ خاطر" وهو يرفع صوته على عجلٍ. "إنه جار لي، وتطوَّع بمساعدته في حال احتجت إليه."

بدا هذا التفسير، إن وجد، يزيد من مفاجأة الغريب الكبيرة. "حسناً، إذا كان هذا لا يشبه قتال الديكة!" هتف وهو يتأملني بإعجابٍ: "لم أسمع قَطّ عن شيءٍ من هذا القبيل."

قال مستأجر كلومبر: "والآن وجدتني أيها العريف (سميث)، ما الذي تريده مني؟"

"كل شيء. أريد سقفاً يغطيني، وألبس الملابس، وآكل الطعام، وقبل كل شيء، براندي لأشربه."

قال اللواء ببطءٍ: "حسناً، سآخذك وأبذل ما بوسعي من أجلك". "لكن انظر هنا، سميث، يجب أن يكون لدينا نظام. أنا الجنرال وأنت العريف؛ أنا السيد وأنت التابع الآن، لا يجب أن أذكرك بذلك مرة أخرى."

انتصب المتشرد مادًا قامته إلى ارتفاعها الكامل ورفع يده اليمنى مع راحة اليد إلى الأمام في تحية عسكرية.

"يمكنني أن آخذك كبستانيٍّ وأتخلص من الرفيق الذي حصلت عليه. أما بالنسبة إلى البراندي، فسيكون لديك تصريح بمعاقرتها فحسب وليس أكثر، نحن لسنا من مدمني الخمور في القاعة."

"ألا تتناول الأفيون أو البراندي أو أي شيء بنفسك يا سيدي؟" سأل العريف روفوس سميث.

قال الجنرال بحزم: "لا شيء.."

"حسناً، كل ما يمكنني قوله هو أنك أصبحت أكثر عصبية وعنجهية مما كنت أنا عليه على الإطلاق. لا أتساءل الآن عن فوزك بهذا الصليب في التمرد. إذا كنت سأستمر في الاستماع ليلاً بعد ليلة لتلك الأشياء دون أخذ قطرة من شيء ما للترويح على قلبي فسأصبح شخصًا سخيفاً."

رفع الجنرال (هيذرستون) يدَه وكأنه يخشى أن يقول رفيقه الكثير ثم قال:

"يجب أن أشكرك، سيد (ويست)، لأنك أظهرت بابي لهذا الرجل. لن أسمح لرفيق عجوز، مهما كان فقير اليد بأن ينحدر به الحال وإذا كنت لم ألبِّ مطالبه بسهولة فذلك ببساطة لأنه كان لدي شكوك حول ما إذا كان هو حقاً الرجل الذي أعرفه."

"ما عليك سوى السير إلى القاعة، أيها العرّيف، وسأتبعك في غضون دقيقة" وتابع: "أيها المسكين!"، وهو يتابع الوافد الجديد وهو يمشي في الشارع بالطريقة الغريبة التي وصفتها. "أصيب بطلقة مسدس أعلى ساقه وسحقت عظامه، لكن الأحمق العنيد لم يسمح للأطباء بنزعها. أتذكَّره الآن كجندي شاب ذكي في أفغانستان. لقد ارتبطت معه ببعض المغامرات الغريبة والتي قد أخبرك بها يومًا ما وأشعر بالتعاطف تجاهه بطبيعة الحال وسوف أقابله. هل أخبرك شيئاً عني قبل مجيئي؟"

"ولا كلمة".. أجبته.

"أوه".. قال الجنرال بلا مبالاة، ولكن مع تعبير واضح عن الارتياح "اعتقدت أنه ربما قال شيئاً من العصور القديمة. حسناً، يجب أن أذهب وأعتني به، وإلا سيخاف منه أهل القاعة لأنه ليس جميلاً كفاية للنظر إليه. وداعًا!"

ملوحًا بيده ابتعد الرجل العجوز عني وأسرع بالسيارة بعد هذه الإضافة غير المتوقعة لأسرته، بينما كنت أتجول على ارتفاع عالٍ وراء الأوتاد السوداء، ونظرت عبر كل قطعة بين الألواح، ولكن دون أن أرى أي أثر سواء لموردونت أو لأخته.

لقد ذكرت هذا البيان الآن لمجيء العريف روفوس سميث، والذي سيثبت أنه بداية النهاية.

لقد وضعت بهدوء وترتيب الأحداث التي أوصلتنا إلى ويجتاون، ووصول الجنرال هيذرستون في كلومبر، والحوادث الغريبة العديدة التي أثارت فضولنا وأخيرًا اهتمامنا الشديد بتلك العائلة، وقد تطرقت لفترة وجيزة للظروف الذي جلبتني وأختي في علاقة شخصية أوثق معهم.

أعتقد أنه لا يمكن أن تكون هناك لحظة أفضل من هذه لتسليم السرد لأولئك الذين لديهم خبرة سابقة لما كان يحدث داخل كلومبر خلال الأشهر التي كنت أراقبها من الخارج.

أثبت المدرب (إسرائيل ستاكيس) عدم قدرته على القراءة أو الكتابة، ولكن قام (ماثيو كلارك)، وزير المشيخة في (ستوني كيرك)، بنقل كلامه وتدوينه، وأقسم على النحو اللازم بالصليب المقابل له على أمانة التدوين والنقل.

وأعتقد أن رجل الدين الجيد، وضع بعض اللمسات الطفيفة على قصة الراوي، والتي لم آسف لها؛ لأنها قد تكون أكثر إثارة للاهتمام إذا كانت أقل وضوحًا عندما يتم الإبلاغ عنها حرفياً. ومع ذلك فإنه لا يزال يحتفظ بآثار كبيرة متفردة نقلاً عن إسرائيل، ويمكن اعتباره سجلاً دقيقاً لما شاهده وفعله أثناء خدمة الجنرال هيذرستون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

(شهادة إسرائيل ستاكيس)

(تم نقلها والتصديق عليها من قبل القس (ماثيو كلارك)، وزير المشيخية في (ستوني كيرك)، في ويجتاون)

يقول السيد(ويست فوثيرجل) والسيد الوزير إنني يجب أن أقول كل ما أعرفه عن الجنرال هيذرستون، كنت أريد التحدث عن نفسي ولو قليلاً، ولكنني تراجعت لثقتي أن القراء لن يهمهم معرفة الكثير عني.

أنا غير متأكد من هذا؛ لأن عائلة ستاكيس هي عائلة معروفة بالمملكة ولها العديد من الأفراد في (نايشدال) و(انانداال) سوف يكونون سعداء عندما يسمعون اسم ابن عائلتهم، ابن (ارتشي ستاكيس) المنحدر من قرية (اكسليفيشان).

لن أستطيع أن أنفذ إرادتي، ولكنني واثق أن السيد (ويست) لن ينساني عندما أطلب منه أي خدمة.

لم أستطع أن أدوّن شهادتي بنفسي وذلك لأن أبي أرسلني منذ الصغر للتطوع بالجيش بدلاً من إرسالي إلى المدرسة لتلقي العلم، ظناً منه أنه بذلك يحافظ على مبادئ الكنيسة الحقيقية وعهودها التي تسعد الرب.

وبحلول شهر مايو الماضي، في الثاني عشر من الشهر الماضي، كان الوكيل، السيد (ماكنيل)، يرافقني في الشارع ويتساءل إن كنت أريد أن أعمل كبستاني وسائس. عندما أخبرني بذلك، تصادف أنني كنت أبحث عن أي عمل أشغل به نفسي في ذلك الوقت، ولكنني لم أرد أن أظهر له حماسي الشديد بسرعة الموافقة على عرضه.

"يمكنك أن تقبل أو ترفض" قال بطريقة حادة.

"هذا عنوان المكان، وسيكون من دواعي سروري أن تقبل، إذا كنت تريد ذلك، يمكنك أن تأتي إلى مكتبي في الصباح وتوجه الأسئلة التي تريدها إلى الرجل صاحب العمل."

يعني ذلك أنه لن يتدخل في الصفقة، وأن الرجل المنشود صعب المراس ودقيق للغاية، وهو ما سوف تكشفه الفترة القادمة وعندما يأتي اليوم ستكون هناك عوامل دقيقة للقبول، ولن أتفاجأ إن كانت توصية السيد ماكنيل من بينها

في الصباح. وصلت إلى المكتب وهناك وجدت الوكيل ومعه رجل ذو شعر رمادي ووجه بني مجعد مثل الجوز. نظر إليَّ بقوة بعينيه الحادتين مثل الأشواك، ثم قال: "لقد ولدت في هذه البلاد أليس كذلك؟" "قلت: "نعم، ولم أتركها أبداً." "لم تسافر خارج إسكتلندا؟" "سأل.

أجبته: "مرتين إلى كارلايل فير"، لأنني رجل يحب الحقيقة، يقول الجنرال هيذرستون: "لقد تعلمت الدرس يا سيد (ماكنيل)".. موجهًا حديثه له ولي أيضًا على حد سواء.

"هل تستطيع الكتابة؟"

"لا .."

"ولا تقرأ؟"

"لا"

ثم قال: "هذا هو الرجل الذي أريده. فالخدام مدللون هذه الأيام، كلما حصلوا على قدرٍ كافٍ من التعليم.. ستيكس، ستناسبني جيداً بما فيه الكفاية. سوف تتقاضى ثلاثة جنيهات في الشهر وسأتكفل بطعامك، ولكنني أؤكد عليك أنه لي الحق في استدعائك في أي وقتٍ خلال الأربعة وعشرين ساعة، هل يناسبك ذلك؟"

"هذا مختلف للغاية عن مكاني الأخير"، قلت دون سخط.

وكانت الكلمات صحيحة بما فيه الكفاية؛ لأن (فيرمر سكوت) أعطاني فقط جنيهًا في الشهر ووجبة مرتين في اليوم.

قال: "حسناً، حسناً سأحاول رفع المرتب إذا أمكن ذلك مستقبلاً. في هذه الأثناء هذا هو المرتب المناسب كما أخبرني به (ماكنيل)، وسأفكر في رؤيتك في كلومبر يوم الاثنين".

عندما جاء يوم الاثنين، مشيت إلى كلومبر وسط كتلٍ كبيرة من الوحل وما يقرب من مائة نافذة، وفضاء خاوٍ.. لم يكن هناك أي حديقة بالمنزل كي أعمل فيها، والحصان لا يخرج من إسطبله حتى نهاية الأسبوع. كنت مشغولاً بما فيه الكفاية حول الاتفاق للعمل كبستاني ومدرب للحصان وليس شيئاً آخر مثل تنظيف السكاكين والأحذية وما شابه ذلك مثل ما يصلح للنساء العجائز وليس الرجال البالغين.

بخلافي كان هناك في المطبخ الطاهية إليزا، وماري مديرة المنزل.

وقد قضتا معظم حياتهما في لندن، وكانتا تعلمان القليل حول العالم وحول طريقة تحضير اللحم!

كنت قد أخبرتهما بذلك، لأنهما حمقاوين للغاية يمكنهما بالكاد فهم اللغة الإنجليزية وكانتا تخشين على أرواحهما أكثر من الضفادع في المستنقع، وعندما عرفت من الطاهية أنها لم تسمع عن (جون نوكس) ([14])، وقالت الأخرى إنها لا تهتم كثيرًا بسماع خطاب المبجل (دونالد ماكسنو) في الكنيسة، علمت أنه حان الوقت بالنسبة لي أن أتركهما لحالهما!

كان هناك أربعة أفراد في الأسرة؛ الجنرال، وزوجته، السيد موردونت، والآنسة غابرييل، ولم يمر وقت طويل قبل أن أتكيف معهم. كانت السيدة نحيفة وشاحبة للغاية، وفي كثير من الأحيان كنت أجدها

شاردة وتحيي الجميع بإيماءة بسيطة من رأسها، لقد شاهدتها تقطع الغابة مجيئاً وذهاباً واستطعت رؤيتها وهي تتأرجح بين صخورها في جنون.

كان هناك السيد الشاب وأخته -يبدو أنهما مصابان بمرض ما في ذهنيهما، أما الجنرال فكان يقضي يومه بأكمله إما بالعلية أو بالأسفل، لكنه كان على حاله؛ وجهًا حزيناً ومكتئباً كمجرم يلتف حول رقبته حبل المشنقة.

حاولت الاستفهام عن هذه العائلة في المطبخ من الطاهية، لكنها أجابتني بأنه لا يليق التدخل في شؤون رؤسائها، وأن المهم بالنسبة لها إنجاز عملها والحصول على أجرها. لقد كانوا بسيطين للغاية وضعفاء لأقصى الحدود وكلاهما نادرًا ما يجيب على سؤال مطروح عليهما.

حسناً، مرت أسابيع إلى شهور والأمور سارت على حالها في القاعة. لقد أصبح الجنرال غاضباً، وكان حزيناً يزداد حزناً كل يوم، ومع ذلك لم يكن هناك شِجار أو مشاحنات بينه وبين زوجته، وعندما كانا يتناولان الإفطار في الشرفة تعمدت تقليم أشجار الورد حتى أتمكن من الاستماع إلى جزءٍ كبيرٍ من محادثتهما وسط صوت مضغ الحبوب.

عندما يكون الشابان معهما يصبح بإمكانهم التحدث قليلاً، ولكن عندما فعلوا ذلك، كان بإمكانهم التحدث عنه، على الرغم من أنني لم أتمكن أبداً من تجميع كلماتهم ولكن حديثهم كان يتمحور حول شيء ما يخافونه بشدة!

لقد سمعت الجنرال يقول أكثر من مرة "إنه ليس خائف من الموت، أو أي خطرٍ يمكن أن يواجهه، ولكن ذلك الانتظار الطويل والملل". ثم كانت زوجته تواسيه وتخبره أن الأمر ليس سيئاً كما يشعر، وأنه سيصبح سعيداً في النهاية.. لكن كلماتها المبهجة لم تفلح في التخفيف عنه.

لاحظت على الشاب والفتاة ارتباطهما بعائلة (ويست فوثيرجل) لورد برانكسوم وخروجهما معهم كلما سنحت الفرصة بعيداً عن قبضة الأب الصارمة، لكن الجنرال كان منغمسًا في مشاكله التي تم ذكرها من قبل، و لم يبدُ لي أنه كان من واجباتي سواء كسائس أو كبستاني أن أحدثّه بذلك الأمر.

يجب أن يعرف أنك إذا منعت شيئاً عن شابٍ أو شابةٍ؛ فأنت بذلك تشجِّعهما بشدة للوصول إلى هذا الشيء، هذه سنة الله في خلقه منذ أن وضع الإنسان في الجنة، ولا يوجد هناك فارق كبير بين ضعف النفس البشرية في جنة عدن وضعف النفوس في (ويجتاون).

شيء آخر لم أذكره بعد، ولكن يجب أن أصرِّح به الآن...

لم يشارك الجنرال غرفته مع زوجته قَط، لكنه ينام في حجرة في أقصى نهاية الممر بالدور العلوي، بعيداً قدر الإمكان عن كل شخصٍ آخر. كانت هذه الغرفة مغلقة عليه عندما يكون فيها، ولم يُسمَح لأي شخصٍ بدخولها. كان يرتب فراشه بنفسه، وينظفها بنفسه ولم يكن يسمح لأحدنا بالسير في الممر المؤديٍ لها.

في الليل، كان يسير في البرج، وكان لديه مصابيح معلقة في كل غرفة وزاوية، بحيث لا يصير زوجًا مظلمًا.

في معظم الوقت وأنا في غرفتي غارقاً في التفكير سمعت عن خطواته فوقي، تغدو وتروح، وتروح وتغدو، في ممرٍّ واحدٍ منذ منتصف الليل حتى الفجر. كان من الصعب أن تكذب للاستماع إلى قعقعته والتساؤل "ما إذا كان ساذجًا نظيفاً، أو إن كان ربما يكره الوثنية والحيل الوثنية في الهند، وأن ضميره كان مثل الدودة التي تقضم ولا تتغذى. كنت قد أستهزئ به إذا لم يكن من السهل عليه التحدث مع دونالد ماكسنو المقدس، ولكن قد يكون ذلك خطأ، والجنرال لم يكن رجلاً تهتم بأن ترتكب خطأ معه.

في يوم من الأيام كنت أعمل على الحدود العشبية عندما صعد وهو يقول:

"هل أُتيحَت لك فرصة إطلاق مسدس يا إسرائيل من قبل؟ "

"من أجل الله!" قلت "لم تكن حياتي قَط خالية من رفع المسدس وإطلاق النيران والتعرض للمخاطر."

يقول: "من الأفضل ألا تتخلى عن تلك الخبرة؛ فكل إنسان يتحمل مسئولية نفسه، أؤكد أنك تستطيع التصويب حتى شجرة البلوط تلك القريبة منا ! "

أجبته بلا مبالاة: "نعم، يمكنني ذلك، أي فتى صغير يستطيع أيضًا."

قال مفسرًا: "هذا مكان منعزل، وقد يتم التحرش بنا من قِبل بعض الأوغاد.

لا بُدَّ أن تكون جاهزًا لكلّ ما قد يأتي. أنا وأنت وابني (موردونت) والسيد (فوثيرجيل ويست) من برانكسوم، الذي سيأتي إذا لزم الأمر، يجب أن نكون قادرين على إظهار وجه قاسٍ ما رأيك؟ "

قلت له: "سيدي، إذا كنت سترفع مرتبي جنيهًا في الشهر، فلن أرفض تلك الوظيفة الإضافية."

"لن نتشاجر على ذلك.." كما قال، ووافق على الزيادة الشهرية.

وتعجبت من موافقة الجنرال السهلة على تلك الزيادة مع أنه في السابق كان يتفاوض بشدة عليها !

أنا لست فضولياً أو من المتطفلين بطبيعتي، لكنني كنت محتارًا في ذهني، وأتساءل لماذا كان الجنرال يمشي في الليل وما الذي يؤرق عليه مضجعه؟

حسناً، في أحد الأيام كنت أقوم بتنظيف الممرات عندما سقطت عيني على الستائر والسجاد القديم الأنيق، تلك الأشياء التي تم تكديسها في زاوية ليست بعيدة جداً عن باب غرفة الجنرال. قلت لنفسي: "إسرائيل.. ما يمنعك من الاختباء وراء تلك الأشياء، هذه الليلة بالذات ورؤية الرجل العجوز عندما يكون وحيداً ويظن أنه بلا رقيب؟ "

عزمت على تنفيذ الفكرة فورًا.

عندما اقترب الليل، أخبرت المرأتين بأنني مصابٌ بصداع شديدٍ، وأنني سأبقى في غرفتي. وصلت إلى هناك خلسة وانتظرت بعض الوقت، وعندما عمَّ السكون خلعت حذائي وركضت إلى كومة الملابس والأشياء القديمة، وهناك استلقيت مع عين متلألئة أنظر بها من خلال ثغرة ضئيلة وأنا مغطى بسجادة كبيرة خشنة.

تكومت بهدوء مثل الفأر حتى مرَّ بجواري الجنرال على الطريق في اتجاه غرفته، وكأنني لا أزال في الفراش.

لقد كان الأمر مروِّعًا هناك في الصمت المطبق، بانتظار كسر الرتابة، باستثناء الضربات الثقيلة على الساعة القديمة في مكانٍ ما عند الممر.

كنت أنظر إلى أسفل الممر بطريقة واحدة، وأقوم بالمراجعة إلى أيٍّ منهما، ولكن يبدو لي أنه كما لو كان هناك شيء قادم من الجانب الذي لم أكن أنظر إليه. كان لدي عرَقٌ بارد على جبهتي، وكان قلبي ينبض سريعًا كحركات البندول المتواصلة للساعة، وما كان يخيفني أكثر هو أن الغبار من الستائر والأشياء ينزل إلى رئتي، وما كان يمكن أن أفعل شيئاً لأحمي نفسي من السعال

من أجل الله! أتساءل لماذا لم يشِب شعري عندما مرَّ الجنرال بجواري؟!

لن أكرر هذه الفعلة مرة أخرى ولو كانت ستجعلني لوردًا على جلاسجو!

حسناً، ربما كانت الساعة الثانية صباحًا أو ربما أكثر قليلاً، وكنت أفكر فقط في أنني لم أرَ أي شيء بعد ذلك ولم أكن آسِفاً جداً عندما ظهر صوت فجأة في أذني، مميز من خلال صمت الليل.

لقد طُلِبَ مني مِنْ قَبل أن أصف هذا الصوت، ولكني وجدت أنه ليس من السهل جداً تكوين فكرة واضحة عنه، على الرغم من أنه كان مختلفاً عن أي صوتٍ آخر سمعته. لقد كانت رنة حادة، مثل ما يمكن أن يحدث عند الطرق على حافة كأس زجاجي، لكنها كانت أعلى وأكثر بكثير من ذلك، وفيها، نوع من الرذاذ، مثل رنين قطرة المطر المتساقطة.

في خوفي انكمشت في السجادة القديمة، مثل عصفور بين أوراق الشجر، وساد الصمت مرة أخرى الآن، باستثناء دقات الساعة البعيدة.

فجأة جاء الصوت مرة أخرى ،بطريقة واضحة، وحيوية، أكثر من أي وقتٍ مضى، وهذه المرة سمعها الجنرال، لأنني سمعته يُصدر الآهات؛ رجلاً متعباً قد يكون قلقاً من نومه.

نهض من سريره، واستطعت أن أسمع صوت حفيف كما لو كان يرتدي ملابسه، وسمعت صوت خطواته عندما بدأ في المشي والخروج من غرفته.

يا للمصيبة! قمت سريعًا بتغطية نفسي بالأشياء القديمة. هناك كنت أرتجف في كل طرف، وأتلو صلاة كما أستطيع أن اتذكرها، مع أن عيني لا تزال تختلس النظر من خلال الفتحة، وثبتهما على باب غرفة الجنرال.

سمعت حشرجة المقبض وفتح الباب ببطء.

كان هناك ضوء ناري في الغرفة خارجًا منها، وكان بإمكاني فقط إلقاء نظرة على ما بدا لي وكأنه صف من السيوف عالق على جانبي الطريق، عندما خرج الجنرال وأغلق الباب خلفه. كان مرتدياً ملابسه، يرتدي قبعة حمراء على رأسه، ونعلاً ذا كعب عالٍ.

للحظة اعتقدت أنه ربما يمشي في نومه، ولكن عندما اقترب مني استطعت رؤية بريق الضوء في عينه، وكان وجهه مضطرباً مثل رجل في سعير الضيق. في ضميري، أشعر بالقشعريرة الآن عندما أفكر في وجهه الأصفر الكئيب الصامت وهو يسير وحيداً في الممر الطويل.

كتمت أنفاسي واقتربت من مشاهدته، ولكن بمجرد وصوله إلى حيث كنت شعرت بتوقف دقات قلبي في صدري، لـ "تينغ" - بصوت عالٍ وواضح على بُعد ياردة مني جاء صوت الرنين الحاد الذي سمعته من قبل.

من أين أتت؟ أو ما هو سبب حدوثها؟

ربما كان الجنرال هو مَن أصدر الصوت، لكنني كنت في حيرة من أمري لأثبت ذلك؛ لأن يديه كانتا بجانبه وهو يمر بجواري. لقد جاء الصوت من اتجاهه، بالتأكيد، ولكن يبدو لي أنه جاء من غرفته، ولكن كان صوتاً رقيقاً، وغريباً، وعالي النبرة، وغريباً لم يكن من السهل تحديد بالضبط من أين أتى.

لم يخرج الجنرال رأسًا على عقب، لكنه سار بعيداً عن الأنظار، ولم أفقد دقيقة؛ فقمت بالزحف من مخبئي والركض بعيداً إلى غرفتي، وإذا كانت البوارج في البحر الأحمر تتعقبني صعوداً وهبوطًا في ليالي الصقيع، لن أخرج رأسي مرة أخرى أبداً لإلقاء نظرة عليهم.

لم أقل كلمة لأي شخص حول ما رأيته، لكنني قررت أنني لن أبقى لفترة أطول في قاعة كلومبر. أربعة جنيهات في الشهر هي أجرٌ جيدٌ، ولكن لا يكفي أن تدفع للرجل لفقدان عقله وربما فقدان روحه أيضًا؛ لأنه عندما يتعلق الأمر بالشيطان لا يمكنني معرفة أيّ نوع من الخطر يترصدني، وعلى الرغم من أنهم يقولون إن العناية الإلهية أقوى منه، فأنا لا أستطيع المخاطرة بروحي.

من الواضح لي أن الجنرال وبيته كانا تحت لعنةٍ ما، وكان من المناسب أن تحلّ هذه اللعنة على أولئك الذين اكتسبوها وليس الرجال الصالحون أمثالي.

كان قلبي أسيرًا للشابة ملكة الجمال (غابرييل)؛ لأنها كانت رقيقة وأنيقة ولكن في ذلك الوقت، شعرت أن واجبي كان النجاة بنفسي وأنني يجب أن أهرب، كما خرج لوط من المدن الشريرة في السهل.

كان هذا الرنين المرعب يجمد الدم في عروقي، ولم أستطع تحمّل أن أكون وحدي في الممرات خوفاً من سماعه مرة أخرى. أردت فقط فرصة أو عذرًا للحصول على حريتي، والعودة إلى مكانٍ ما حيث يمكنني أن أرى قومًا مسيحيين، وأن أذهب إلى الكنيسة في اطمئنان.

ولكن لا بُدَّ أن يأتي الأمر من الجنرال نفسه وليس مني.

كان يوم في بداية أكتوبر، كنت أخرج من الإسطبل بعد أن أخرجت الطعام إلى الحصان، عندما رأيت مشرداً قبيحًا ضخم الجسد يقفز على ساق واحدة نحو المنزل، وكان أشبه إلى حدٍّ كبيرٍ بالغراب منه إلى الإنسان!

عندما نظرت إليه، اعتقدت أنه ربما كان من الأوغاد الذين كان يتحدث عنهم السيد؛ لذلك وبدون تردد، قمت بإحضار عصا غليظة بقصد تجربتها على رأسه. لقد رآني قادمًا نحوه، وقرأ نيتي من نظرتي نحوه ربما أو من العصا في يدي، قام بإخراج سكين حامية من جيبه وأقسم اليمين بأنه إذا لم أتراجع فالموت لي.

كدت أن أفقد أعصابي وأنا أستمع إلى الكلمات التي استخدمها ذلك المتشرد، كانت تندفع لجعل الشعر يقف مباشرة على رأسك. أتساءل أنه لم يصدم حيث يقف.

كنا ما زلنا نقف في مواجهة بعضنا البعض؛ كان يمسك سكينه وأنا أستخدم العصا عندما وصل الجنرال بالسيارة ووجدنا. لدهشتي بدأ في التحدث إلى الغريب كما لو كان صديقاً قديمًا.

وقال: "ضع سكينك في جيبك أيها العريف، لقد أفسدت مخاوفك عقلك."

"الدم والجروح!" يقول الآخر: "لولا السكين في يدي لكان هشم رأسي وملئها بالجروح لا يجب أن تحتفظ بهؤلاء المتوحشين في دارك."

كان السيد ينظر إليه في اشمئزاز وبدا عليه عدم إعجابه بالنصيحة التي أسداها له ثم التفت إليَّ قائلاً:

"لن تكون مطلوباً بعد اليوم يا إسرائيل، لقد كنت خادمًا مخلصًا، ولم يكن لدي أي شيء لأشكو منه، ولكن نشأت ظروف ستؤدي إلى تغيير ترتيباتي."

قلت: "جيد جداً يا سيدي."

"يمكنك الذهاب هذا المساء، وسيكون لديك أجر شهر إضافي بسبب هذا الإخطار المفاجئ بالاستغناء."

ثم دلف الى الداخل، متبوعًا بالرجل الذي أطلق عليه العريف، ومنذ ذلك اليوم حتى الآن لم أرَ أيًّا منهما. تم إرسال أموالي إليَّ في مظروف، وبعد أن قلت بضع كلمات الإطراء للطاهية والخادمة وإشارة إلى معرفتهما الأكثر قيمة من الياقوت، نفضت غبار كلومبر من قدمي إلى الأبد.

سألني السيد (ويست) عن رأيي حول ما حدث بعد ذلك، لكن الأمر يقتصر على ما رأيته بنفسي.

لا شك في أن لديه أسبابه لذلك - وليكن الأمر بعيداً عني للتلميح إلى إنني لست خادمًا أميناً - لكنني أقول إن ما حدث بعد ذلك لم يفاجئني. كان الأمر كما توقعت، وهكذا قلت لماستر دونالد ماكسنو.

لقد قلت كل شيء الآن، وليس لدي كلمة أضيفها أو أنقصها منها. وأنا مطمئن لكتابة وتدوين السيد (ماثيو كلارك)، وإذا كان هناك من يرغب في أن ينشر أيَّ شيءٍ أكثر عني، فأنا معروف في

(إكسليفاشن)، وماستر (ماكنيل)، وكيل ويجتاون يعرف طريقي، وأين من الممكن أن تجدوني.

ملحوظة: (لقد تقاضى الوغد العجوز أجرًا جيدًا كي يدلي بإفادته، وهو لم يقدمها من باب المساعدة أو كخدمة شخصية).. (جون ويست).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

(قصة جون إيسترلينغ)

بعد أن قدّمت ببيان "إسرائيل ستاكيس" بشكل مفصل، سأقوم بإلحاق مذكرة قصيرة من الدكتور إيسترلينغ، المقيم الآن في سترانرير. صحيح أن الطبيب تردد مرة واحدة فقط على مبنى كلومبر خلال فترة إيجاره من قبل الجنرال هيذرستون، ولكن كانت هناك بعض الظروف المرتبطة بهذه الزيارة التي جعلتها ذات قيمة، خاصة عند اعتبارها مكملة للتجارب التي قدمتها للتو للقارئ.

وجد الطبيب بعض الوقت وسط جدوله المزدحم ومشاغله لتدوين ذكرياته، وأشعر أنني لا أستطيع أن أفعل ما هو أفضل من ذكرها تمامًا كما هي.

يسعدني جداً أن أقدم للسيد (ويست) تقريرًا عن زيارتي المنفردة إلى قاعة كلومبر، ليس فقط بسبب التقدير الذي كونته لهذا الرجل منذ إقامته في برانكسوم، ولكن أيضًا لاقتناعي أن الحقائق في حالة الجنرال (هيذرستون) ذات طبيعة فريدة لدرجة أنها من الأهمية كي يتم عرضها على الجمهور بطريقة جديرة بالثقة.

في بداية شهر سبتمبر من العام الماضي تلقيت مذكرة من السيدة (هيذرستون) -من مبنى كلومبر- ترغب في إجراء كشف طبي على زوجها، الذي قالت إن صحته كانت لبعض الوقت في حالة غير مستقرة للغاية.

قد سمعت قليلاً عن الجنرال (هيذرستون) والعزلة الغريبة التي يعيش فيها؛ لذا كنت مسرورًا جداً بهذه الفرصة للتعرف عليه عن قُرب، ولم أضيع أي وقت في الامتثال لطلبها.

كنت قد عرفت القاعة في الأيام القديمة للسيد (مكفيتي) -المالك الأصلي- واندهشت عند وصولي إلى بوابة الشارع من التغييرات التي حدثت على المبنى والأرض المحيطة به.

البوابة التي كانت مفتوحة دائمًا بشكل مضياف على الطريق أصبحت الآن محجوبة ومغلقة، وهناك سور خشبي مرتفع مع مسامير في الأعلى طوّق الأراضي بأكملها. كانت العربة الخاصة بالمبنى مليئة بأوراق الشجر على الرغم من أنها خالية من العيوب، وكان المكان كله يعطي انطباعًا محبطًا من الإهمال والتدهور.

اضطررت للطرق مرتين قبل أن تفتح خادمة خادم الباب وأرشدتني إلى قاعة قذرة في غرفة صغيرة، حيث جلست سيدة مسنة، واهنة، قدمت نفسها على أنها السيدة (هيذرستون). مع وجهها الشاحب، وشعرها الرمادي، وعينيها الحزينتين عديمتي اللون، وفستانها الحريري الباهت، كانت في وضع مثالي متوافق مع المكان الكئيب المحيط بها.

قالت بصوت نقي وهادئ:

"تجدنا في مشكلة كبيرة يا دكتور؛ زوجي المسكين كان عنده قلق شديد، وكانت أعصابه لفترة طويلة في حالة متوترة للغاية، لقد جئنا إلى هذا الجزء من البلاد على أمل أن يكون الهواء والهدوء لهما تأثير جيد عليه، وبدلاً من التحسن بدا أنه أصبح أضعف، وهذا الصباح يعاني من حمى شديدة ويميل قليلاً إلى الهذيان. كنا خائفين لدرجة أننا أرسلنا لك في الحال. إذا تبعتني فسآخذك إلى غرفة نوم الجنرال."

قادتني إلى أسفل بين سلسلة من الممرات إلى غرفة الرجل المريض، التي كانت تقع في أقصى طرف المبنى.

كانت غرفة خالية من السجاد، تبدو قاتمة، ومفروشة بشكل محدود بسرير متحرك صغير، وكرسي خشبي، وطاولة مستديرة بسيطة كانت مبعثرة فوقها العديد من الأوراق، والكتب، وفي وسط هذه الطاولة كان هناك مخطط ضخم غير منتظم، تمت تغطيته بمفرش من الكتان.

على جميع الجدران والأركان كانت هناك مجموعة متنوعة من الأسلحة، وبشكل رئيسي السيوف، وكان بعضها من النمط المستقيم الشائع الاستخدام في الجيش البريطاني، في حين كان هناك نوعيات أخرى من الصنعة الشرقية كالسيف الأحدب العربي والسيف الطويل الهندي. تم ترتيب العديد من هذه السيوف بطريقة مميزة في غمدها المطوي المرصع بالحجارة الكريمة بحيث كان هناك تباين شديد بين بساطة الغرفة والثروة التي تتلألأ على الجدران.

كان لدي القليل من الوقت لمشاهدة مجموعة الجنرال؛ حيث كان الجنرال نفسه يستلقي على الأريكة، وكان من الواضح أنه في حاجة ماسة إلى خدماتي.

كان مستلقياً ورأسه تحول بعيداً عنا ويتنفس بشكل متسارع، وعلى ما يبدو كان فاقداً للوعي لوجودنا. أظهرت عيناه اللامعتان اللتان تحدقان، والاحمرار العميق المحموم على خده أن الحمى كانت في أوجها.

قدمت إلى جانب السرير وانحنيت عليه، وضعت أصابعي على نبضه فانتفض على الفور إلى وضعية الجلوس وضربني بشكل محموم بيديه المشبكين. لم يسبق لي أن رأيت شدة الخوف والرعب هذه على وجه بشري كما ظهر على ما كان يذهلني الآن.

صرخ: "أيها الكلب الدموي! دعني أذهب - دعني أذهب! ابعد يديك عني! ألا يكفي أن تدمر حياتي؟ متى ينتهي كل شيء؟ إلى متى سأتحمل؟"

"اصمت يا عزيزي، اصمت!" قالت زوجته بصوت مهدئ، تمر بيدها الباردة على جبهته الساخنة. "هذا هو دكتور (جون استيرلنج) من (سترانرير) لم يأتِ لإيذائك، بل ليعالجك."

سقط الجنرال بشكل مرهق على وسادته، واستطعت أن أرى من خلال التعبير المتغير لوجهه أن هذيانه قد ذهب، وأنه يفهم ما قيل.

أدخلت مقياس الحرارة السريري في إبطه، وعددت معدل نبضه. بلغت 120 في الدقيقة وثبتت درجة حرارته عند 104 ([15]).

من الواضح أنها كانت حالة من الحمى المترددة، كما يحدث في الرجال الذين قضوا جزءًا كبيرًا من حياتهم في المناطق الاستوائية.

قلت: "لا يوجد خطر.."

واضفت: "بقليل من الكينين([16]) والزرنيخ سيتغلب قريباً على الحمى ويستعيد صحته."

قال: "لا خطر، هه؟ لا يوجد أيُّ خطرٍ بالنسبة لي، أنا من الصعب أن أقتل مثل يهودي متجول. لقد استعدت وعيي تمامًا في رأسي الآن يا (ماري)؛ لذا يمكنك تركي مع الطبيب."

غادرت السيدة هيذرستون الغرفة - عن غير قصدٍ كما ظننت - وجلست بجانب السرير للاستماع إلى أي شيء قد يضطر مريضي للتواصل معي بشأنه.

قال بعد أن أغلق الباب:

"أريدك أن تفحص كبدى؛ كان لدي خُراج هناك، وقال (برودي) الجرَّاح الاستشاري، أنه بنسبة واحد من عشرة سوف يقتلني. لم أشعر به كثيرًا منذ أن غادرت الشرق، هذا هو المكان الذي اعتدت أن يكون فيه، تحت زاوية الأضلاع."

قلت: "يمكنني العثور على المكان."

وبعد إجراء فحص دقيق أخبرته: "لكنني سعيد لإخبارك أن الخراج إما قد تم امتصاصه بالكامل، أو تحول إلى كلس، كما يحدث مع هذه الخراجات الانفرادية. ليس هناك خوف من إلحاقها أي ضرر بك الآن."

وبدا أنه ليس مسرورًا على الإطلاق من النتيجة. قال متبرمًا: "هذه الأشياء تحدث معي دائمًا " "الآن، إذا كان زميل آخر محمومًا ومصاباً بالهذيان، فسيكون بالتأكيد في خطر ما، ومع ذلك ستقول لي إنني لست في وضع مستقر. انظر إلى هذا الآن". قام بكشف صدره وأراني جرحًا مجعداً فوق منطقة القلب. "هذا هو المكان الذي دخلت فيه رصاصة أيزيل من هيلمان. كنت تعتقد أن هذا كان في المكان المناسب لقتل رجل، ومع ذلك لم تفعل شيئاً سوى كسر ضلع، واخترقته كاملاً وخرجت من الخلف، دون أن تسبب ضررًا بالغًا وتمت مداوتها بما تسمونه يا معشر الأطباء بأدوية الجنبة([17])(تهتك الغشاء الجانبي للضلع). هل سمعت عن شيء من هذا القبيل؟ "

قلت بابتسامة: "لقد ولدت بالتأكيد تحت نجمة الحظ."

أجاب وهو يهز رأسه: "هذه مسألة رأي؛ إن الموت ليس مرعباً بالنسبة لي إذا كان سيأتي في شكل مألوف، لكنني أعترف بأن توقع بعض أشكال الموت الغريبة وبعض أشكال ما وراء الطبيعة أمر فظيع ومثير للقلق."

فقلت في حيرة من ملاحظته: "أنت تقصد إنك تفضل الموت الطبيعي على الموت بالعنف؟ "

أجاب: "لا، لا أقصد ذلك بالضبط؛ أنا معتاد على الفولاذ البارد والرصاص ولا أخاف من أي منهما. هل تعرف أي شيء عن القوى الخارقة للطبيعة أيها الطبيب؟"

أجبت: "لا" ونظرت إليه بحدة لمعرفة ما إذا كانت هناك أي علامات على هذيانه. كان تعبيره ذكياً، ومع ذلك، فقد تلاشى الاحمرار المحموم من خديه.

قال:

"آه، أنتم رجال العلم الغربيون متخلفون كثيرًا عن الحاضر في بعض الأشياء؛ في كل ما هو مادي ويساعد على راحة الجسم أنت تعرفه جيداً، ولكن فيما يتعلق بقوى الطبيعة الخفية والقوى الكامنة للروح البشرية أفضل الأطباء يتخلفون بقرون وراء رجال الهند المتواضعين، تلك البلاد أعطت الأجيال التي لا تُعَدّ ولا تحصى من أسلاف لحوم البقر، الراحة المستكينة هي من غرائز الحيوانات لدينا، وأغفلنا السيطرة على الروحانية. الجسد، الذي كان ينبغي أن يكون مجرد أداة لبقاء الروح والتكيف معها أصبح الآن سجناً مهيناً محصورًا فيها. إن الروح والجسد عند الشرقيين ليسا متلازمين معًا مثلنا، كما أن هناك وجعًا أقل بكثير عندما يواجهون الموت."

"لا يبدو أنهم يستفيدون كثيرًا من هذه المزية في حياتهم"..قلت بنبرة غير المصدق.

أجاب الجنرال:

"مجرد فائدة المعرفة الفائقة هو شيءٌ جيدٌ، إذا كنت ذاهباً إلى الهند، فربما يكون أول شيءٍ ستراه في طريق التسلية هو أن يقوم مواطن ما يسمى بخدعة المانجو، بالطبع سمعت أو قرأت عنها. يزرع الزميل بذرة مانجو، ويمر فوقها حتى تنبت وتحمل الأوراق والفاكهة - كل ذلك في غضون نصف ساعة. إنها ليست حيلة - إنها قوة. هؤلاء الرجال يعرفون أكثر مما يعرفه (جون تيندل)([18])أو (هكسلي)([19]) حول عمليات الطبيعة، ويمكنهم تسريع أو تأخير أعمالها بوسائل خفية لا يوجد لدينا تصور لها.

إن هؤلاء المشعوذين من الطبقة الدنيا - كما يُطلَق عليهم - هم مجرد هواة، لكن الرجال الذين داسوا الطريق الأعلى هم أعلى منا بكثير في المعرفة وينظرون إلينا وكأننا مثل الغوغائيين والهمج."

"أنت تتحدث كما لو كنت على دراية جيدة بهم.."قلت.

فأجاب: "بالنسبة إليّ لقد اتصلت بهم بطريقة لم تخطر لي على بالفقيرٍ من أي وقتٍ مضى. ولكن، في الواقع، فيما يتعلق بالقوة الخارقة للطبيعة، يجب أن تعرف شيئاً عنها؛ لأن كان لها شأنٌ عظيمٌ من قبل في مهنتك، يجب عليك قراءة "أبحاث الرايخنباخ حول المغناطيسية والقوة الحيوية" و "رسائل جريجوري عن المغناطيسية الحيوانية".

هذه، تكملها الأمثال السبعة والعشرون لأفكار (مسمر)([20])، وأعمال الدكتور (جاستينيوس كيرنر)([21])، من فاينزبرغ، ستوسع مدى أفكارك."

لم أستمتع بشكل خاص بأن ينصحني بالقراءة في موضوع مرتبط بمهنتي الخاصة؛ لذلك لم أعلق لكنني نهضت كي أغادر المكان. قبل القيام بذلك، شعرت بنبضه مرة أخرى ووجدت أن الحمى تركته تمامًا بطريقة مفاجئة غير خاضعة للتصديق، وهي غريبة في هذه الأنواع من الأمراض المؤذية.

وجهت وجهي نحوه لأهنئه على تحسنه، ومددت يدي في نفس الوقت لألتقط قفازي من الطاولة، ونتيجة لذلك لم أنتبه وأنا أرفعه أنني أرفع المفرش الكتان الذي تم وضعه على شيءٍ ما في المركز.

ربما لم أكن قد لاحظت ما فعلته لم أرَ نظرة غاضبة على وجه الجنرال وسمعته يصرخ بصوت عالٍ.

استدرت على الفور واستبدلت القماش بسرعة كبيرة لدرجة أنه كان يجب ألا ألحظ ما تحتها، بخلاف الحصول على انطباعٍ عامٍ بأنها تبدو مثل كعكة العروس.

قال الجنرال: "حسناً يا دكتور" وهو يضحك مداعبًا، مُدركًا كم كان الحادث عرضيًا تمامًا.

"لا يوجد سبب يمنعك من رؤيته" وبسط يده، وسحب غطاء الكتان للمرة الثانية.

ثم أدركت أن ما لمحته عن كعكة العروس كان في الواقع نموذجًا تم تنفيذه بشكل مثير للإعجاب لمجموعة من الجبال العالية، التي لم تكن قممها المكسوة بالثلوج مختلفة عن قمم السكر والمآذن المألوفة.

وعلق قائلاً: "هذه هي جبال الهيمالايا، أو على الأقل فرع سورينام"، موضحًا الممرات الرئيسية بين الهند وأفغانستان.

إنها نموذج ممتاز. هذه الأرض لها أهمية خاصة بالنسبة لي؛ لأنها شهدت حملتي الأولى، هناك ممر كالاباغ ووادي ثول، حيث كنت منخرطًا خلال صيف عام 1841 في حماية القوافل والحفاظ على نظام الأفريديس([22]). لم يكن الأمر غريباً"

قلت: "وهذا"، مشيرًا إلى بقعة دم حمراء تم تمييزها على الممر الذي أشار إليه "هذا مكان بعض المعارك التي شاركت فيها؟"

أجاب: "نعم، كان لدينا مناوشة هناك".. مائلاً إلى الأمام ونظر إلى العلامة الحمراء "لقد هوجمنا من قبل.."

في هذه اللحظة سقط على وسادته وكأنه أصيب برصاصة، بينما ظهر نفسُ الرعب على وجهه الذي لاحظته عندما دخلت الغرفة لأول مرة. في نفس اللحظة جاء على ما يبدو من الهواء مباشرة فوق سريره، صوتٌ حادٌّ، رنين، رنين، والذي لا يمكنني مقارنته إلا بالضوضاء الصادرة عن إنذار دراجة، على الرغم من أنه اختلف عن ذلك في وجود ارتجاج واضح بسببها.

لم أسمع قبل أو منذ ذلك الحين- أيَّ صوتٍ شبيه بذلك الصوت الغريب.

حدقت في دهشة، متسائلاً من أين يمكن أن تأتي، ولكن دون أن أدرك أيَّ شيءٍ يمكن أن ينسب إليه.

قال الجنرال بابتسامة عصبية:

"كل شيء على ما يرام، دكتور، إنه الجرس الخاص بي فقط. ربما كان من الأفضل أن تنزل إلى الطابق السفلي وتكتب الروشتة في غرفة الطعام."

كان من الواضح أنه كان حريصًا على التخلص مني؛ لذلك اضطررت إلى المغادرة على الرغم من أنني كنت سأبقى سعيداً لفترة أطول قليلاً على أمل معرفة أي شيء عن أصل الصوت الغامض.

لقد غادرت المنزل بعيداً بإصرارٍ كاملٍ على الاتصال مرة أخرى بمريضي المثير للاهتمام، والسعي لاستنباط المزيد من التفاصيل حول حياته الماضية وظروفه الحالية. ومع ذلك، كان من المقرر أن أشعر بخيبة أمل؛ لأنني تلقيت في تلك الأمسية رسالة من الجنرال نفسه بإرفاق رسوم محترمة لزيارتي الفردية، وإبلاغي بأن علاجي قد جعله جيداً جداً لدرجة أنه اعتبر نفسه في فترة نقاهة، ولن يزعجني بأن أراه مرة أخرى.

كان هذا هو التواصل الأخير والوحيد الذي تلقيته على الإطلاق من مستأجر كلومبر.

لقد سألني كثيرًا الجيران وغيرهم من المهتمين بالمسألة ما إذا كان قد أعطاني انطباعًا بالجنون. لهذا لا بُدَّ لي من الإجابة بلا تردد نافياً. على العكس، أعطتني ملاحظاته فكرة رجلٍ قرأ وفكَّر بعمق.

ومع ذلك، لاحظت، خلال مقابلتنا الفردية، أن ردود أفعاله كانت ضعيفة، وعلامات قوس الشيخية الشديدة، وشراييه متقلبة وكلها علامات على أن صحته في حالة غير مستقرة، وأنه قد يصاب بأزمة مفاجئة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

(الرسالة التي جاءت من القاعة)

بعد أن ألقيت هذا الضوء الجانبي على روايتي، يمكنني الآن استئناف بيان تجاربي الشخصية. لقد توقفت، كما يتذكر القارئ دون شك، إلى تاريخ وصول المتجول المتوحش الذي أطلق على نفسه اسم العريف روفوس سميث. وقعت هذه الحادثة في بداية شهر أكتوبر تقريباً، وأجِد مقارنة بين التواريخ التي سبقت زيارة د. إيسترلينغ إلى كلومبر بثلاثة أسابيع أو أكثر.

خلال كل هذا الوقت كنت في حالة من الضيق الذهني، لأنني لم أرَ أيَّ شيءٍ من غابرييلٍ أو شقيقها منذ المقابلة التي اكتشف فيها الجنرال الاتصال الذي تم الاحتفاظ به بيننا. لم يكن لدي شكٌ في أنه تم وضع نوع من المراقبة اللصيقة عليهم؛ والفكرة بأننا جلبنا المشاكل على رؤوسهم كانت فكرة مريرة لأختي ونفسي.

ومع ذلك، خفف قلقنا إلى حد كبير تلقي مذكرة، بعد يومين من محادثتي الأخيرة مع الجنرال، برسالة خطية من (موردونت هيذرستون) وقد أحضرها طفل صغير، ابن أحد الصيادين، وأخبرنا أنه تم تسليمها له عند بوابة الطريق من قِبل امرأة عجوز - أتوقع أنها يجب أن تكون طباخة كلومبر.

"أعز أصدقائي، حزنت أنا و(غابرييل) في التفكير في مدى القلق الذي شعرتم به عندما انقطعت أخبارنا عنكم ولم تعودوا ترونا أو تسمعوننا. الحقيقة هي أننا مضطرون للبقاء في المنزل. وهذا الإكراه ليس جسدياً لكن أخلاقياً.

والدنا المسكين الذي يتوتر أكثر فأكثر كل يوم حثنا على أن نعده بأننا لن نخرج إلا بعد الخامس من أكتوبر، ولتهدئة مخاوفه قدمنا له التعهد المطلوب. من ناحية أخرى وقد وعدنا أنه بعد اليوم الخامس - أي في أقل من أسبوع - سنكون أحرارًا مثل الهواء لنأتي أو نذهب كما يحلو لنا، لذلك لدينا شيء نتطلع إليه. تقول غابرييل إنها أوضحت إليكم أن الجنرال دائمًا رجل متغير بعد هذا التاريخ المحدد، حيث تصل مخاوفه إلى أزمة. يبدو أن لديه سبباً أكثر من المعتاد هذا العام للتنبؤ بأن المشكلة تختمر لهذه العائلة المؤسفة، لأنني لم أعرفه أبداً باتخاذ الكثير من الاحتياطات المعقدة أو يبدو غير مرتاح تمامًا كما يبدو الآن.

من كان يظن، عندما يرى شكله المنحني ويديه المرتعشتين، أنه هو نفس الرجل الذي استُخدِمَ قبل بضع سنوات قصيرة لإطلاق النار على النمور سيرًا على الأقدام بين أدغال تيراي، وكان يضحك على الرياضيين الذين سعوا لحماية هوادج الفيلة؟

أنت تعلم أنه حائز على صليب فيكتوريا، الذي فاز به في دلهي، ومع ذلك فهو يرتجف من الرعب ويخشى كل ضجيج، وهو منكمش على نفسه في أكثر الأماكن عزلة في العالم. يا للأسف، (ويست) تذكر ما قلته لك بالفعل - أنه ليس خطرًا خيالياً أو خارقاً للطبيعة، ولكنه خطر لدينا كل سبب لنفترض

أنه أكثر واقعية، ومع ذلك، فإنه من الطبيعة التي لا يمكن تجنبها، ولا يمكن يتم التعبير عنها بشكل مفهوم بالكلمات. إذا سارت الأمور على ما يرام، فسوف ترانا في برانكسوم في السادس من هذا الشهر.

مع أعز حب منّاً لكليكما، يا أعز الأصدقاء."

(موردونت)

كانت هذه الرسالة بمثابة ارتياح كبير لنا؛ حيث جعلتنا نعلم أن الأخ والأخت لم يكونا تحت أي احتجازٍ جسديٍّ، ولكن ضعفنا وعجزنا حتى عن فهم الخطر الذي هدد أولئك الذين أحببناهم أكثر من أنفسنا كاد ليدفع بنا إلى حافة الجنون.

سألنا أنفسنا خمسين مرة في اليوم، وسألنا بعضنا البعض من أي جهة محتملة كان هذا الخطر متوقعًا، ولكن كلما فكرنا فيه أكثر لم يظهر أي حل.

عبثا جمعنا خبراتنا وجمعنا كل كلمة سقطت من شفاه أي نزيلٍ من كلومبر والتي من المفترض أن تتصل بالموضوع بشكل مباشر أو غير مباشر.

أخيرًا، أرهقنا من التخمينات غير المثمرة وحاولنا إخراج الأمر من عقولنا، ووجدنا عزاء لأنفسنا بالتفكير في أنه في غضون أيام قليلة أخرى ستتم إزالة جميع القيود، ويجب أن نكون قادرين على التعلم من أصدقائنا كتمان السر والصبر.

ومع ذلك، كنا نخشى أن تكون تلك الأيام القليلة القادمة كئيبة وطويلة.

وهكذا كان يمكن أن تكون الأيام، لولا وقوع حادث جديد وغير متوقع، والذي حوّل عقولنا عن مشاكلها الخاصة وأعطاها شيئاً جديداً ليشغلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

(جنوح القارب بليندا)

كان الثالث من أكتوبر قد جاء مبشرًا بشمسٍ مُشرِقة وسماءٍ صافية. كانت هناك أكاليل بيضاء صغيرة من السُّحُب تنجرف هنا وهناك مثل الريشِ المتناثر لبعض الطيور العملاقة، ولكن كما اتضح من الطقس، كانت هذه الرياح موجودة تمامًا، أصبحت قريبة وراكدة.

توهجت الشمس بدرجة حرارة كانت رائعة في وقت متأخر من الموسم، وكان الضباب المتلألئ يكمن في المرتفعات المرتفعة وأخفى الجبال الآيرلندية على الجانب الآخر من القناة.

البحر نفسه ارتفع وسقط في لفة طويلة ثقيلة، زيتية تجتاح ببطء إلى اليابسة، وتكسر بشكل قاتم مع ازدهار رتيب ممل على رصيف التراب الصخري. يبدو للجميع هادئاً وسلمياً، ولكن بالنسبة لأولئك الذين اعتادوا على قراءة تحذيرات الطبيعة كان هناك تهديد مظلِم في الهواء والسماء والبحر.

خرجنا أنا وأختي في فترة ما بعد الظهر، مشينا ببطءٍ على طول حافة الساحل الرملي العظيم المطل على البحر الآيرلندي، ويحيط على جانبٍ واحدٍ بخليج لوس الرائع، وعلى الجانب الآخر الأكثر غموضًا من كيركمايدين([23])، على الشواطئ التي تقع فيها ملكية برانكسوم.

كان من السابق لأوانه أن يجلس على أحد التلال الرملية المتضخمة مع خصلات عشب باهتة، والتي تمتد على طول الخط الساحلي، والتي تُشكِّل سدود طبيعية ضد زحف المحيط.

سرعان ما قطعَ استراحتنا صوتُ الأحذية الثقيلة السائرة على لوح خشبي وظهر جيميسون، رجل الحرب العجوز الذي أتيحت لي الفرصة لأذكره بالفعل؛ فقد اعتاد على صيد الجمبري. جاء إلينا فور رؤيتنا، وقال بطريقته الخشنة اللطيفة أنه يأمل ألا نرفض إذا أرسل إلينا طبقاً من الروبيان لشاينا في برانكسوم. وعلق قائلاً: "إنني أقوم بأداء صيدٍ جيدٍ قبل العاصفة".

"هل تعتقد أنه ستكون هناك عاصفة، إذاً؟" سألت.

أجاب: "حتى الطيور البحرية يمكن أن ترى ذلك."

واستطرد هو يدس كمية كبيرة من التبغ في غليونه: "إن الأراضي البور بالقرب من كلومبر يقطنها نوارس بيضاء؛ هل تعتقد أنهم هرعوا للشاطئ لسبب، بخلاف الهروب من عاصفة عاتية؟ أتذكر في مثل هذا اليوم عندما كنت مع (شارلي نابير) في (كرونشتادت)، مياه الأمطار غسلتنا جيداً تحت فوهات المدافع لجميع سفننا وبوارجنا."

"هل سبق لك أن رأيت حطامًا في هذه الأنحاء؟" سألت.

"حباً في الله يا سيدي، إنه مكان مشهور لتحطيم السفن. في هذا الخليج بالذات يوجد اثنتان من السفن الضخمة، الأولى للملك فيليب تم العثور عليها بواسطة العديد من الجنود في أيام الحرب الإسبانية. عندما يحل يوم القيامة سيخرج من القاع وخليج لوس العديد من البشر."

قالت (إستر) بجدية:

"أنا على ثقة من أنه لن يكون هناك أي حوادث لتحطيم السفن أثناء وجودنا هنا."

هزَّ الرجل العجوز رأسه متطاير الشعر ونظر إلى الأفق الغامض، وقال:

"إذا هبت الرياح من الغرب، فيمكن العثور على بعض هذه السفن الشراعية دون غرفة بحرية في القناة الشمالية، هناك تلك السفينة الشراعية التي أجزم على أن سيِّدَها سيكون سعيداً بما يكفي ليجد نفسه آمناً في كلايد ([24])"

لاحظتُ، وأنا أنظر إلى السفينة المعنية، التي ظهر هيكلها الأسود وأشرعتها اللامعة، كانت تبحر بطيئة مع نبض الموج العملاق تحتها: "يبدو أنها بلا حركةٍ على الإطلاق، ربما، جاميسون، نحن مخطئون، ولن تكون هناك عاصفة بعد كل شيء."

ضحكَ البحَّار القديم إلى نفسه بجوٍّ من المعرفة المتفوّقة، وامتلأت شبكته بالجمبري، بينما كنت أنا وأختي نسير ببطء نحو المنازل عبر الهواء الساخن الرطب.

ذهبت إلى مكتب والدي لمعرفة ما إذا كان الرجل العجوز لديه أي معلومات عن تلك الأملاك؛ لأنه أصبح منغمسًا في الأدب الشرقي وانتقلت الإدارة العملية للممتلكات بالكامل إليَّ.

لقد وجدته جالسًا على طاولة مكتبته المربعة التي كانت مليئة بالكتب والأوراق بحيث لم يكن هناك شيء مرئي من خلال الباب باستثناء خصلة من شعره الأبيض.

قال لي: "يا ولدي العزيز، عندما كنت في عمرك كان بإمكاني التحدث ليس فقط بهذه اللغة النبيلة، ولكن أيضًا اللهجات (التامولية) و (لوهيتيك) و (جانجيليك) و (مالاوية)، وكلها فروع من الفرع التوراني([25]) (لهجات جنوب شرق اسيا)."

أجبت: "أنا آسف للغاية يا سيدي لأنني لم أرث مواهبك الرائعة كتعدد اللغات".

أوضح: "لقد حددت لنفسي مهمة، إن لم يكن بمقدور أحدٍ القيام بها؛ فمن الممكن أن تجعل اسم عائلة (ويست) خالداً. (الترجمة الإنجليزية للدارما البوذية) مع مقدِّمة تعطي فكرةً عن موقف البراهمينية ([26]) قبل مجيء شاكيامونـي([27]). مع بعض الاجتهاد قد أتمكَّن من إكمال جزءٍ من المقدمة قبل أن أموت."

سألته: "إلى متى سيستغرق هذا العمل حتى ينتهي؟"

قال والدي وهو يفرك يديه معًا:

"إن النسخة المختصرة في المكتبة الإمبراطورية في بيكين، تتكون من 325 مجلداً بمتوسط وزن يبلغ خمسة أرطال، ثم المقدمة، التي يجب أن تحتوي على بعض الرواية، يمكن الآن إكمال (السامافيدا)([28]) و (ياغور فيدا) و (اثارفا فيدا) مع البراهميين في أقل من عشرة مجلدات. نهاية عام 2250حيث الجيل الثاني عشر سيكمل العمل، في حين أن الثالث عشر قد يعمل على الفهرس!"

سألته مبتسمًا: "وكيف يعيش أحفادنا، يا سيدي، أثناء تقدم هذه المهمة العظيمة؟"

صاح والدي بتهور:

"هذا أسوأ ما في الأمر يا جاك؛ لا يوجد شيء عملي تؤديه؛ فبدلاً من توجيه انتباهك في العمل وِفق مخططاتي النبيلة، بدأت في إثارة جميع أنواع الاعتراضات السخيفة. إنها مجرد مسألة تفاصيل عن حياة أحفادنا، طالما أنهم يلتزمون بالكتابة عن الدارما ([29])!

الآن، أريدك أن تطالع كلا من فيرغوس ماكدونالد، وأن ترى ما كتبه عن البيت ذي السقف المصنوع من القش، وقد كتب ويلي فوليرتون ليقول إن البقرة الحلوب قد تكون ضارة لصاحبها، اقرأ آراءهما جيداً كي تعرف كيف تنظر للمستقبل.. واسأل بعدها".

بدأت أنظر إلى البارومتر على الحائط. لقد غرق الزئبق إلى درجة استثنائية من 28 بوصة. من الواضح أن البحار القديم لم يكن مخطئاً في تفسيره لعلامات الطبيعة.

عندما عدت فوق السهول في المساء، كانت الرياح تهب في نفث قصير وغاضب، وكان الأفق الغربي ممتلئاً بسحب قاتمة امتدت مخالبها الطويلة والممزقة وصولاً إلى عنان السماء.

على خلفيتها المظلمة ظهرت بقعة أو اثنتان من اللطخات الملونة الكبريتية الخبيثة والخطيرة، في حين أن سطح البحر قد تغير من مظهر الزئبق المصقول إلى سطح الزجاج المكسور، وبالأسفل ارتفع صوت أنين من المحيط كما لو كان يعلم أن هناك مشكلة قادمة.

رأيت بعيداً في القناة مركباً بخارياً عتيقاً يكافح للوصول الى خليج بلفاست، وكانت السفينة الشراعية التي رأيتها في الصباح لا تزال تتأرجح من وقتٍ لآخر، وتحاول شقّ طريقها في عرض البحر للوصول إلى الشمال.

في الساعة التاسعة نسيمٌ حادٌ كان يهب في قسوة، في العاشرة كان قد انتعش إلى عاصفة، وقبل منتصف الليل كانت العاصفة الأكثر غضباً مستعرة والتي يمكنني أن أتذكرها على الساحل الذي ضربته العاصفة.

جلست لبعض الوقت في غرفة الجلوس الصغيرة المصنوعة من خشب البلوط أستمع إلى الصراخ والعويل من الانفجار، وإلى حشرجة الحصى وهو يندفع على النافذة. عزفت أوركسترا الطبيعة الرهيبة مقطوعة قديمة الطراز تراوحت بين الصوت العميق لضربات الرعد إلى الصرخة الرفيعة من الألواح المبعثرة المتناثرة وزمير الطيور البحرية الخائفة.

للحظة واحدة فتحت النافذة ذات القضبان الحديدية، ولكن عاصفة من الرياح والأمطار استقبلتني حاملة معها ورقة كبيرة من الأعشاب البحرية وقعت على الطاولة. كان كل ما يمكنني فعله أن اكتفيت بإغلاق النافذة بمجهود فائق من كتفي ليقاوم تلك العاصفة.

ذهب أبي وأختي إلى غرفتيهما، لكن أفكاري كانت نشطة جداً منعتني عن النوم؛ لذلك واصلت التدخين ودخان النار.

تساءلت ماذا يجري في القاعة الآن؟ ما رأي (غابرييل) في العاصفة، وكيف أثرت على الرجل العجوز الذي يتجول في الليل؟

هل رحب بهذه القوى الفظيعة من الطبيعة باعتبارها على شاكلة أفكاره المضطربة؟

لم يتبقَّ سوى يومين فقط على التاريخ الذي تأكدت أنه يوافق حدوث الواقعة التي غيَّرت مسري حياته، هل يعتبر ما يحدث الآن هو المصير الغامض الذي هدَّدَه؟

مع كل هذه الأشياء والعديد من الأشياء الأخرى، فكرت ملياً عندما جلست بجوار الجمر المتوهج حتى انطفأ، وحذرتني برودة الليل من أن الوقت قد حان للتقاعد.

ربما نمت لبضع ساعات عندما استيقظت من قبل شخص يسحب كتفي بشراسة، عندما جلست في السرير، رأيت في الضوء الخافت أن أبي يقف مرتدياً نصف ملابسه بجانب سريري، وكانت قبضته هي ما شعرت بها على منامتي الليلية.

"انهض يا جاك، انهض!" كان يصرخ بحماس. "هناك سفينة عظيمة على الشاطئ عند الخليج، وسوف يغرق جميع ركابها. تعالَ يا ولدي ودعنا نرى ما يمكننا القيام به."

يبدو أن الرجل العجوز كان مليئاً بالإثارة ونفاد الصبر. نهضت من سريري، وكنت أحاول جمع عدد من الملابس، عندما سمع صوت طنين مرتفع يعلو فوق عواء الريح والأمواج المتكسرة على الصخر.

"ها هو ذا مره أخرى!" صرخ والدي. "إنها بندقية الإشارة، يا لهم من مخلوقات بائسة!

جايمسون والصيادون بالأسفل. ارتدِ معطف الزيتي والقبعة الجلينجاري([30]).. تعال، تعال، كل ثانية قد تعني حياة بشرية!"

سارعنا معًا وشققنا طريقنا إلى الشاطئ برفقة عشرات أو نحو ذلك من سكان برانكسوم.

العاصفة اشتدت بدلاً من أن تكون معتدلة، وكانت الرياح تصرخ من حولنا بصخب جهنمي. كانت قوتها رائعة جداً لدرجة أننا اضطررنا إلى وضع أكتافنا ضدها، وشققنا طريقنا من خلالها، بينما ضربت الرمال والحصى وجوهنا.

لم يكن هناك سوى ضوء خافت يخرج بين الغيوم المتلألئة واللمعان الأبيض للأمواج المنكسرة، ولكن على امتداد البصر كان الظلام المطلق.

وقفنا على كواحل أقدامنا التي غاصت عميقاً في الألواح والأعشاب البحرية وظللنا أعيننا بأيدينا كي نحدق في الظلام الغامض.

بدا لي أنه بإمكاني سماع أصوات بشرية تصرخ بصوت عالٍ في رعبٍ، ولكن في خضم الاضطراب الشديد للطبيعة، كان من الصعب التمييز بين صوت وآخر.

وفجأة يلمع ضوءٌ في قلب العاصفة يضيء الشاطئ والخليج العريض من خلال الوهج اللامع لضوء الإشارة.

كانت السفينة بكامل عرضها في وسط شعاب هانسيل الرهيبة، وقد تم رميها إلى هذه الزاوية التي مكنتني من رؤية جميع ألواح سطحها. لقد تعرفت عليها في الحال على أنها نفس السفينة ذات الثلاثة أشرعة التي لاحظتها في القناة في الصباح وميزتها لافتة (اتحاد جاك) التي تم تثبيتها على جانب السفينة وبدت مقلوبة رأسًا على عقب وسط الأمواج.

ظهرت كل قطعة وحبل خاصة بالسفينة جلية تحت الضوء النابض بالحيوية والذي امتد حتى أعلى مقدمة السفينة.

ما وراء السفينة المنكوبة، خرجت من الظلام الدامس الخطوط الطويلة للموجات الكبيرة المتدفقة، التي لا تنتهي أبداً، ولا تتعب أبداً، مع رغوة صغيرة على قممها. بدا كل منها عند وصوله إلى دائرة الضوء أنها تجمع بين القوة والحجم وتسرع على نحو أكثر قوة بهدير مرعب قادر على تحطيم ضحاياها.

وسط تلك الظروف المناخية الصعبة كان بالكاد يمكننا أن نرى بوضوح عشرة أو اثني عشرة بحار خائفين، عندما كشف الضوء عن وجودنا حوّلوا وجوههم الشاحبة نحونا ولوحوا بأيديهم. من الواضح أن البائسين الفقراء كانوا يرون أملاً جديداً من وجودنا، على الرغم من أنه كان من الواضح أن قواربهم إما جُرفَت أو تضررت بشدة وصارت عديمة الفائدة.

لم يكن البحارة الذين تمسكوا بحبال الأشرعة والصواري هم البائسون الوحيدون على متن السفينة؛ عند مؤخرة السفينة المحطمة كان هناك ثلاثة رجال يبدو أنهم من عِرقٍ وطبيعة مختلفين عن البؤساء المتذمرين الذين ناشدونا المساعدة.

اتكأوا على مؤخرة السفينة المدمرة تمامًا، وبدا وكأنهم يتحدثون معًا بهدوء ودون قلق كما لو كانوا غير واعين بالمخاطر القاتلة التي أحاطت بهم.

مع وميض ضوء الإشارة فوقهم استطعنا أن نرى ونحن على الشاطئ أن هؤلاء الغرباء غير المتحركين كانوا يرتدون طرابيش حمراء، وكانت وجوههم ذات البشرة الداكنة والتفاصيل الواضحة قد عبرت عن أصلهم الشرقي.

ومع ذلك، كان هناك القليل من الوقت بالنسبة لنا لملاحظة هذه التفاصيل؛ لقد تحطمت السفينة بسرعة ويجب بذل بعض الجهود لإنقاذ هذه المجموعة المسكينة من البشر الذين تعلقوا بمساعدتنا.

كان أقرب قارب نجاة في خليج لوس على بُعد عشرة أميال، ولكن هنا كانت مركبتنا الواسعة والقوية على لوحة خشبية والكثير من الصيادين الشجعان لتشكيل طاقم. انطلق ستة منا إلى المجاديف ودفعنا الآخرون وقاتلنا في طريقنا عبر المياه الدوامية، الهائجة، والمذهلة متراجعين بفعل الرياح العاتية، ولكننا بقينا نتقدم بخطى ثابتة لتقليل المسافة بيننا وبين السفينة القديمة ذات الأشرعة.

ومع ذلك، يبدو أن جهودنا ذهبَتْ سدى.

عندما ركبنا على موجة مرتفعة رأيت موجة عملاقة تتبعها موجات أخرى مثل راعي الذي يقود قطيعًا ونزلت على السفينة بقوسٍ أخضَر كبير من الشعاب شطر السفينة إلى نصفين.

مع صوت الانهيار انقسمت السفينة إلى قسمين حيث كانت شعاب هانسيل الرهيبة المسننة تدمر مقدمة السفينة، أما الجزء الآخر؛ فقد مزَّق الشراع الخلفي للسفينة وغرق إلى الوراء في المياه العميقة واختفى وغرقَ معه الثلاثة رجال الشرقيين، في حين تأرجح النصف الأمامي حوله، محتفظًا بتوازنه الهش على الصخور.

صدرت صرخة خوفٍ من الحطام وتردد صداها من الشاطئ، ولكن بمباركة العناية الإلهية بقيت السفينة طافية حتى شققنا طريقنا نحوها، وأنقذنا كل رجال أفراد الطاقم.

ومع ذلك لم نصل إلى منتصف الطريق عند عودتنا حتى اجتاحتنا موجة كبيرة أخرى من الشعاب المرجانية وأخمدت الإشارة الضوئية وحجبت عن أعيننا الرؤية.

كان أصدقاؤنا على الشاطئ صاخبين في التهنئة والثناء علينا كما أنهم لم يتوانوا عن الترحيب بالناجين وتهدئتهم. لقد كانوا ثلاثة عشر رغم كل شيء، يرتجفون برداً ورعباً كما لو أنهم قد هربوا من بين أصابع الموت، باستثناء قائدهم الذي كان رجلاً قوياً متماسكاً مستخفاً بعملية الإنقاذ الرهيبة تلك!

تم نقل البعض إلى المنازل الريفية وما شابهها، ولكن الجزء الأكبر عاد إلى برانكسوم معنا، حيث قدَّمْنَا لهم الملابس الجافة المتاحة، وقدمنا لهم اللحم البقري والجعة وحصلوا على التدفئة بجانب نار المطبخ.

قام القبطان- المسمى (ميدوز)- بضغط جسده الضخم فى بدلة خاصة بي ونزل إلى الردهة حيث صب لنفسه مشروباً وقدم لي ووالدي بياناً عن الكارثة.

قال مبتسمًا في وجهي: "لولاك، يا سيدي، وزملاؤك الشجعان كان يجب أن نكون الآن تحت عمق عشرة قامات أسفل. أما بالنسبة لبليندا، فقد كانت سفينة قديمة مليئة بالثقوب، وهي مؤمّن عليها؛ لذا فلن أحزن جدياً عليها وكذلك أصحابها".

قال والدي بحزنٍ:

"أخشى أننا لن نرى رُكَّابك الثلاثة مرة أخرى أبداً. لقد تركت الرجال على الشاطئ يقومون بتمشيطه بحثاً عنهم، لكنني أخشى أنه أمر ميؤوس منه؛ رأيتهم يغرقون عندما انشطرت السفينة، وليس بإمكان أي شخص أن يعيش حتى هذه اللحظة تحت تلك الأمواج الرهيبة."

"من كانوا؟" أنا سألت. "لم أكن لأصدق أنه من الممكن لرجال أن يظهروا غير مبالين في مواجهة هذا الخطر الوشيك."

أجاب القبطان وهو ينفث الدخان من غليونه:

"مَن يكونون أو ما كانوا؟ ليس من السهل قول ذلك على الإطلاق، كان آخر ميناء لنا هو كوراشي، شمال الهند، وهناك أخذناهم على متن السفينة كركاب إلى جلاسكو. كان (رام سينغ) هو اسم أصغرهم وهو الوحيد الذي استطعت التواصل معه بخلاف باقي المجموعة، ولكن بدا أنهم جميعًا هادئون وغير مؤذيين. لم أستفسر عن عملهم أبداً، ولكنني خمنت أنهم كانوا تجارًا مجوسيين من حيدر أباد ينقلون تجارتهم إلى أوروبا. لم أتمكن أبداً من معرفة سبب خوف الطاقم منهم وكان ينبغي على مساعدي أيضًا أن يكون أكثر رفقاً معهم."

"يخافون منهم!" قلت متفاجئاً.

"نعم، كانت لديهم فكرة مغلوطة عن كونهم زملاء سفينة خطرين، ليس لدي شك أنك إذا نزلت إلى المطبخ الآن ستجد أن جميعهم متفقون على أن ركابنا هم سبب الكارثة بأكملها."

وبينما كان القبطان يتحدث، تم فتح باب الردهة ودخل مساعده وهو بحار طويل ذو لحية حمراء، وقد بدا من شكله أنه صياد طيب القلب وأوحى قميصه الفضفاض وحذاؤه البحري ذو الرقبة الطويلة كصورة مثالية للغاية لبحار نجا لتوه من الغرق.

وبكلماتٍ قليلة من الاعتراف بالامتنان لكرم ضيافتنا وجَّه كرسيًا إلى النار ودفأ يديه البنيتين العظيمتين أمام النار الحارقة.

"ما رأيك الآن، كابتن (ميدوز)؟" سأل وهو يلقي نظرة خاطفة على قائده الأعلى "ألم أحذرك من نتيجة وجود هؤلاء الملونين على متن البلينداء؟"

استرخى القبطان على كرسيه وضحك بحرارة.

صرخ وهو يدير رأسه نحونا: "ألم أخبرك؟ ألم أخبرك؟"

وعلَّق الآخر بتشاؤم: "ربما لم يكن الأمر مضحكًا بالنسبة لنا، لقد فقدت مجموعة بحرية جيدة وفقدت تقريباً حياتي في تلك الصفقة."

قلت: "هل أفهم أنك تعزو مصائبك لركابك المنكوبين؟"

فتح رفيقه عينيه متعجباً من تلك الصفة، وسأل: "لماذا منكوبون يا سيدي؟"

أجبت: "لأنهم غرقوا بالتأكيد".

تنهد بحرارة وكأنه غير مصدق لما قلته واستمر في تدفئة يديه. وقال بعد أن نهض واقفاً على قدميه:

"الرجال من هذا النوع لا يغرقون أبداً؛ فوالدهم -الشيطان- يعتني بهم. هل رأيتهم يقفون على سطح السفينة يقومون بلف السجائر في الوقت الذي انكسر فيه الصاري وتمزقت الأشرعة؟ كان ذلك دليلاً كافياً بالنسبة لي. أنا لست متفاجئاً منكم أيها السادة أنكم لا تستطيعون استيعاب هذا، لكن القبطان هنا، الذي كان يبحر منذ أن كان ضابط ملاحة فحسب، يجب أن يكون على دراية بأن القطة والكاهن هما أسوأ حمولة يمكنك حملها. إذا كان الكاهن المسيحي سيئاً، أظن أن مثيله الوثني أسوأ خمسين مرة. أنا أقف بجانب الدين القديم فحسب!"

لم أستطع أنا وأبي أن نضحك على طريقة البحار الخشنة غير التقليدية في إعلان عقيدته. ومع ذلك، كان من الواضح أنه كان جاداً بشكلٍ صادقٍ وشرع في تدعيم رأيه ووضع علامة على النقاط المختلفة على الأصابع الحمراء الخشنة ليده اليسرى. وقال موبخًا القبطان:

"في كوراشي، مباشرة بعد قدومهم حذرتك، عندما رأيتهم ينزلون على بطونهم ويفركون أنوفهم على سطح السفينة. لن يفعلوا نفس الشيء إن كانوا بصحبة أميرال من البحرية الملكية، وهم يعرفون منَ هو، هؤلاء الملونين رأيت الأذى لحظة أن رأيت وجوههم. سألت الطاقم بعد ذلك في حضرتك أيها الكابتن، لماذا فعلوا ذلك، وأجابوا أن الركاب رجال مقدَّسون.. سمعتهم بنفسك."

قال الكابتن (ميدوز): "حسناً.. لا ضرر في ذلك، (هوكينز)."

قال الرفيق: "لا أعلم ذلك، أقدس مسيحي هو الشخص الأقرب إلى الله، لكن أقدس ملون هو في رأيي، الشخص الأقرب إلى الشيطان. ثم رأيت بنفسك، كابتن ميدوز، كيف كانوا خلال الرحلة يقرأون الكتب المكتوبة على الخشب بدلاً من الورق، والجلوس ليلاً يتهامسون معًا على سطح السفينة. ما الذي جعلهم يمتلكون مخططًا بخط سير السفينة، ولماذا كانوا يشيرون يومياً نحو قارب النجاة الخاص بالسفينة؟"

قال القبطان: "لم يفعلوا ذلك."

"لقد فعلوا ذلك بالفعل، وإذا لم أخبركم في وقتٍ أقرب كان ذلك لأنك كنت دائمًا تضحك على كل ما أقوله عنهم، كان لديهم أدوات خاصة بهم عندما استخدموها لا أستطيع أن أقول، ولكن كل يوم عند الظهر كانوا يرسمون خطوط الطول ودوائر العرض، ووضعوا علامة على موقع السفينة على مخطط خاص بهم مثبت على طاولة المقصورة. رأيته عندها، وكذلك فعل وكيل مخزن المؤن."

علَّق القبطان: "حسناً، لا أفهم ما ترمي إليه، على الرغم من أنني أعترف أنه شيءٌ غريبٌ."

قال رفيقه بشكل مثير للإعجاب:

"سأخبرك بشيء غريب آخر، هل تعرف اسم هذا الخليج الذي نحن فيه؟ "

أجاب القبطان: "لقد علمت من أصدقائنا الطيبين هنا أننا على ساحل (ويجتاون)، لكنني لم أعرف اسم الخليج."

انحنى رفيقه إلى الأمام بوجهٍ يحمل أمارات الجدية وقال: "إنه خليج كيركميدين".

إذا كان يتوقع أن يذهل الكابتن (ميدوز)؛ فقد نجح بالتأكيد، لأن هذا الأخير ظل ممسكًا عن الكلام لمدة دقيقة أو أكثر، وقال بعد فترة وهو ينظر إلينا:

"هذا رائع حقاً؛ لقد سأل هؤلاء الركاب كلينا -أنا و(هوكينز)- عن خليج بهذا الاسم ونفينا تمامًا عِلمنا به؛ على خرائطنا كان هناك فحسب خليج (لوس)، ولكن وصولنا إلى هنا وتدمير السفينة بهذه الطريقة لهي مصادفة غير عادية!".

غمغم الزميل: "غير العادي أن تكون مصادفة؛ رأيتهم خلال الهدوء صباح أمس، جالسين على الأرض عند ميمنة السفينة. لقد عرفوا جيدًا أن هذا هو الميناء الذي يريدون الوصول إليه."

وسأل القبطان بوجه مضطرب: "لماذا تقول كل هذا، إذاً (هوكينز)؟ ما هي نظريتك الخاصة في هذا الأمر؟ "

أجاب المساعد:

"في رأيي، هؤلاء الحثالة الثلاثة لن يجدوا صعوبة في إثارة رياح عاصفة أكثر من صعوبة ابتلاع هذا الشراب؛ كانت لديهم أسباب خاصة بهم للمجيء إلى هذا المكان المهجور الحقير -مع احترامي لكما أيها السيدان- هذا الخليج المهجور منذ فترة طويلة، وقد اتخذوا طريقاً مختصرًا للترتيب أن يتم نقلهم إلى الشاطئ هناك. هذه هي فكرتي عن الأمر، على الرغم من عجزي عن استيعاب ما يمكن أن يجده ثلاثة كهنة بوذيين في خليج كيركميدين المهجور."

رفع والدي حاجبيه للإشارة إلى الشك الذي منعه كرم ضيافته من الكلام بشأنه، قال:

"أعتقد أيها السادة أن كليكما في حاجة ماسة إلى الراحة بعد مغامراتكما الخطرة، إذا اتبعتماني فسأوصلكما إلى غرفتيكما."

قادهما إلى أفضل غرفة نوم للضيافة خاصة بلورد (برانكسوم)، ثم عاد إليَّ في الردهة، واقترح عليَّ أن ننزل معًا إلى الشاطئ ونعرف ما إذا كان أي شيء جديد قد حدث.

كان أول ضوء فجر شاحب يظهر للتو في الشرق عندما شققنا طريقنا للمرة الثانية إلى مكان حطام السفينة. كانت العاصفة قد هدأت نوعًا ما، لكن البحر كان لا يزال مرتفعًا للغاية، وكان كل ما داخل القواطع عبارة عن خط من الرغوة اللامع، كما لو كان المحيط القديم الشرس يكشر عن أنيابه البيضاء غضبًا على الضحايا الذين فروا من براثنها.

على طول الشاطئ، كان الصيادون والمزارعون يعملون بجِدٍ في نقل قطع الغيار والبراميل سريعًا إلى الشاطئ. ومع ذلك، لم يرَ أيٌّ منهم أيَّ جثث، وأوضحوا لنا أن الأشياء التي يمكن أن تطفو هي الوحيدة التي لديها فرصة للوصول إلى الشاطئ؛ لأن التيار السفلي كان قويًا جدًّا بحيث يسحب ما تحت سطح البحر حتى الأعماق كي يغرق تمامًا.

فيما يتعلق بإمكانية وصول الركاب التعساء إلى الشاطئ، فلم يسمع هؤلاء الرجال العمليون صوتهم للحظة، وأوضحوا لنا بشكل قاطع أنه إن لم يغرقوا فيجب أن يكونوا قد تحطموا على الصخور!

قال والدي بحزن: "لقد فعلنا كل ما يمكن فعله، أخشى أن يكون المساعد المسكين قد تأثر عقله بتلك الكارثة. هل سمعت ما قاله عن قيام الكهنة البوذيين برفع عاصفة؟"

قلت: "نعم، لقد سمعته، لقد كان الاستماع إليه أمرًا مؤلمًا للغاية."

قال والدي:

"أتساءل ما إذا كان سيعترض على وضع لصقٍ طبيٍّ صغيرٍ من الخردل تحت كل من أذنيه. فمن شأنه أن يخفف من أيَّ احتقانٍ في الدماغ. أو ربما يكون من الأفضل إيقاظه وإعطاؤه حبتين من المضاد الحيوي. ما رأيك، جون؟"

قلت متثائبًا:

"أعتقد، أنه من الأفضل أن تتركه ينام، وتذهب أنت أيضًا للنوم يمكنك أن تخبره في الصباح إذا كان بحاجة إليه."

وبمجرد أن أتممت حديثي توجهت إلى غرفة نومي وأنا أتعثر في طريقي، ورميت نفسي على الأريكة وسرعان ما رحت في سباتٍ بلا أحلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

(ثلاثة رجال غرباء على الشاطئ)

لا بُدَّ أن الساعة كانت الحادية عشرة أو الثانية عشرة عندما استيقظت، وبدا لي في طوفان الضوء الذهبي الذي تدفق في غرفتي أن الأحداث الغريبة المضطربة في الليلة السابقة وكأنها جزء من حلم رهيب.

كان من الصعب تصديق أن النسيم اللطيف الذي يداعب بهدوء أوراق اللبلاب حول نافذتي هو نفسه الذي هز المنزل قبل ساعات قليلة. كان الأمر كما لو أن الطبيعة قد توقفت عن ثورتها المفاجئة وكانت تسعى إلى إصلاح ما أفسدته في الليلة السابقة بدفئها وأشعة الشمس. ملأت جوقة من الطيور في الحديقة الهواء كله بعجائبها وتغريدها.

في القاعة، وجدت عدداً من بحَّارة السفينة الغارقة، وقد ظهروا بشكلٍ أفضل بعد استراحة الليل، وأطلقوا صيحات من المتعة والامتنان عند رؤيتي.

تم اتخاذ الترتيبات اللازمة لإيصالهم إلى (ويجتاون)؛ حيث كان من المفترض أن يتجهوا إلى غلاسكو بواسطة القطار المسائي، وأصدر والدي أوامر بوجوب تقديم علبة من الشطائر والبيض المسلوق لكل واحدٍ منهم لإعانتهم على الطريق.

شكرنا الكابتن (ميدوز) بحرارة باسم طاقمه على الطريقة التي تعاملنا بها معهم، ودعا طاقمه ليهتف باسمنا ثلاث مرات ففعلوا بحرارة وحماس، ثم سار هو ومساعده معنا بعد أن أفطرنا لنلقي نظرة أخيرة على مكان الكارثة.

كان الخليج العظيم لا يزال يرتفع بشكل مضطرب، وأمواجه تنكسر في قسوة على الصخور، ولكن لم يكن هناك نفس الهياج الوحشي الذي رأيناه في الساعات الأولى لليوم. امتدت الأمواج كتلال طويلة زمردية مع قممها البيضاء الصغيرة التي تعلوها الرغوة، ببطءٍ وبشكلٍ مَهيب، وتكسر بإيقاع منتظم كلهاث وحش مُتعَب.

طوال طريق الشاطئ استطعنا أن نرى الصاري الرئيسي للسفينة يطفو على الأمواج، ويختفي في بعض الأحيان في قاع البحر ثم ينطلق من القاع إلى السطح مثل الرمح العملاق، وهناك قطع حطام أصغر أخرى تنتشر في المياه، في حين أن عدداً لا يحصى من بقايا الصواري واللفائف كانت مبعثرة على الرمال، تم إعدادها وجمعها في مكان آمن من قِبل جماعات القرويين. لقد لاحظت أن اثنين من النوارس ذات الأجنحة العريضة تحومان على مشهد حطام السفينة كما لو أن العديد من الأشياء الغريبة كانت مرئية لهم تحت الأمواج. في بعض الأحيان كنا نسمع أصواتهم الصاخبة وهم ينادون على بعضهم البعض ليتجمعوا حول ما رأوه.

قال القبطان وهو ينظر بحزنٍ إلى البحر:

"لقد كانت حِرفة قديمة مندثرة، ولكن لا بُدَّ أن أشعر بالحزن عندما أرى آخِر سفينة أبحرت فيها. حسناً، لقد تحطمت على أي حالٍ وصارت خشباً بالياً".

قلت له: "يبدو مشهداً هادئاً، ولكن من يتخيل أن ثلاثة رجال فقدوا أرواحهم الليلة الماضية في تلك المياه؟"

قال القبطان بحزنٍ: "رفاق مساكين، إذا تم العثور عليهم بعد رحيلنا، فأنا متأكدٌ، سيد (ويست)، من أنك ستدفنهم بشكلٍ لائق."

كنت على وشْك الرد عليه بالإيجاب عندما انفجر رفيقه بضحكة مجلجلة، وأخذ يصفق على فخذه بمرح قائلاً:

"إذا كنت ترغب في دَفنِهم، فمن الأفضل أن تكون حاداً بما يكفي؛ فقد يخرجون من تحت التراب هل تتذكر ما قلته الليلة الماضية؟ انظر إلى أعلى ذلك التل، وأخبرني سواء كنت على حق أم لا؟"

كان هناك كثبان رملية عالية على مسافة قصيرة على طول الساحل، وعند قمة التل الرملي كان هناك شخصٌ يقف منتصباً دون حركة تُذكَر. رفع القبطان يديه في دهشة حيث وقعت عيناه عليه، وصاح: "يا الله يا قيوم! إنه رام سينغ نفسه! فلنقم بمداواته وإعادته لحالته الطبيعية."

قام بالعدو سريعًا وكأنه في سباق على طول الشاطئ وتبعته مع مساعده، بالإضافة إلى واحد أو اثنين من الصيادين اللذين لاحظا وجود الغريب.

هذا الأخير، عندما أدرك ملاحظتنا لوجوده، نزل من مكانه وسار بهدوء في اتجاهنا وقد انكفأ رأسه على صدره مثل الشخص الغارق في تفكير عميق.

لم أستطع مقارنة تقدمنا المتعجل والمضطرب بهدوء وثبات ذلك الشرقي الوحيد ولم يتغير الأمر عندما رفع زوجًا من العيون الداكنة الثابتة وأومأ برأسه في تحية رشيقة مهذبة وكأننا كنا مجموعة من تلاميذ المدارس أمام معلم الصف!

اجتمع جبين الغريب العريض الأملس مع نظراته الواضحة، والفم الراسخ الدقيق، والتعبير الحازم على الوجه، ليشكل الوجه الأكثر نفوذاً ونبلاً الذي عرفته على الإطلاق. لم أكن أتصور أن مثل هذا الهدوء الذي لا يُقاوَم وفي نفس الوقت مثل هذه الثقة بالنفس يمكن أن يعبِّر عنه أي وجه بشري.

كان يرتدي معطفاً مخملياً بنياً، وسروالاً فضفاضًا داكناً، وقميصًا به قَطعٌ بسيط في الياقة لإظهار الرقبة العضلية البنية، ولا يزال يرتدي الطربوش الأحمر الذي لاحظته في الليلة السابقة.

لاحظت بشعور من الدهشة -عندما اقتربنا منه- أن أيًّا من هذه الملابس لم يظهر عليها أدنى مؤشر على المعاملة القاسية والرطوبة التي يجب أن تكون قد تلقتها أثناء غرق مرتديها، أو ما يدل على النضال للوصول إلى الشاطئ!

قال بصوت موسيقي لطيف وهو ينظر من القبطان إلى رفيقه: "إذا أنت لم تلق مصيرًا سيئاً مثل مصير سفينتك الغارقة، آمل أن يكون البحارة المساكين قد وجدوا إقامة ممتعة."

أجاب القبطان: "نحن جميعًا بأمان، لكننا تخلينا عنك - أنت وصديقيك. في الواقع، كنت أقوم بترتيبات دفنكم هنا مع السيد (ويست)."

نظر إليَّ الغريب وابتسم، وعلق قائلاً:

" حتى الآن لن نشغل السيد (ويست) بهذه المشاكل لبعض الوقت؛ لقد وصلنا أنا وأصدقائي إلى الشاطئ في أمان تام، وقد وجدنا مأوى في كوخ على بُعد مَيلٍ أو نحو ذلك على طول الساحل. إنه الكوخ الوحيد هناك ولكن لدينا كل ما يمكن أن نرغب فيه."

قال القبطان:

"سنبدأ في التوجه إلى جلاسجو بعد ظهر اليوم، سأكون سعيداً جداً إذا شئت أن تأتي معنا. إذا كنت لم تزر إنجلترا من قبل فعليك أن تعلم أنه من الصعب السفر وحدكم."

أجاب (رام سينغ):

"نحن مدينون لك بشدة لاهتمامك، لكننا لن نستطيع الاستفادة من عرضك الكريم؛ نظرًا لأن الطبيعة دفعتنا إلى هنا فإننا نعتزم إلقاء نظرة فاحصة عليها قبل أن نغادر."

قال القبطان وهو يهز كتفيه: "كما تريد، لا أعتقد أنه من المرجَّح أن تجد الكثير مما يثير اهتمامك في هذا المكان القاحل."

أجاب رام سينغ بابتسامة مضحكة:

"ربما لا؛ تتذكر نصوص ميلتون([31]): (العقل هو سيد نفسه، وبإمكانه أن يجعل الجحيم جنة، وأن يحيل الجنة إلى جحيم)، أجرؤ على القول أنه يمكننا قضاء بضعة أيام هنا بشكل مريح بما فيه الكفاية. في الواقع، أعتقد أنه يجب أن تكون مخطئاً في اعتبار أن هذه منطقة بربرية. أنا مخطئ كثيرًا إذا لم يكن والد هذا الشاب المهذب هو السيد المعروف (جيمس هنتر ويست)، والذي كرَّمه النقاد في الهند."

"إن والدي بالفعل عالِمٌ متعمقٌ في السنسكريتية."

أشار الغريب ببطءٍ: "وجود مثل هذا الرجل يحول البرية إلى مدينة، إن أحد العقول العظيمة هو بالتأكيد مؤشر أعلى للحضارة من البطولات التي يتم إحرازها من الطوب وقذائف الهاون؛ والدك يكاد أن يكون متعمقاً مثل السير (ويليام جونز)، أو عالمياً جداً مثل البارون (فون هامر بورغستال)، لكنه يجمع بين العديد من فضائل كل منهما.

ومع ذلك، يمكنك أن تخبره على لساني أنه مخطئ في القياس الذي تتبعه بين جذر كلمتي (ساموديي) و (ناموليك)."

قلت:

"إذا كنت قد قررت تكريم منطقتنا بإقامة قصيرة مجاورة لنا فسوف تسيء إلى والدي كثيرًا إذا لم تتحمله. إنه يمثل اللورد هنا، ومن مسؤوليات الوكيل -وِفقاً لعاداتنا الإسكتلندية- الترفيه عن جميع الغرباء الذين يزورون هذا المكان.."

دفعني شعوري بحسن الضيافة إلى تقديم هذه الدعوة، على الرغم من أنني شعرت بمساعد القبطان وهو يشدني من كمي كما لو أنه ينذرني بأن العرض سيكون -لسببٍ ما- عرضًا مرفوضًا، ومع ذلك، كانت مخاوفه غير ضرورية، فقد أشارت هزة رأس الغريب أنه من المستحيل بالنسبة له قبول ذلك العرض.

قال:

"أنا وأصدقائي نعتذر لك بشدة، ولكن لدينا أسبابنا الخاصة للبقاء في مكاننا. الكوخ الذي نقطن فيه مهجور ومُهدم جزئياً، لكننا -نحن الشرقيين- دربنا أنفسنا على الاستغناء عن معظم تلك الأشياء التي يُنظر إليها على أنها ضرورية في أوروبا، ونؤمن إيماناً راسخًا بهذه البديهية الحكيمة بأن الرجل الغني ليس بما لديه، ولكن بما يمكنه الاستغناء عنه. الصياد الطيب يزودنا بالخبز والأعشاب، ولدينا قش نظيف وجاف يصلح كأرائك، ما الذي يمكن أن يتمناه الإنسان أكثر؟ "

وعلق القبطان قائلاً: "لكن من الممكن أن تشعروا بالبرد في الليل، قادمًا مباشرة من المناطق الإستوائية."

قال:

"ربما تبرد أجسادنا أحياناً، لم نلحظ ذلك من قبل؛ لقد أمضينا سنوات عديدة في جبال الهيمالايا العليا على حدود منطقة الثلج الأبدي؛ لذلك فنحن لسنا حساسين للغاية كي تزعجنا تلك البرودة."

قلت: "على الأقل، يجب أن تسمح لي أن أرسل لكم بعض الأسماك وبعض اللحوم من حجرة المؤن لدينا."

أجاب:

"نحن لسنا مسيحيين، لكننا بوذيون من الطبقة العليا؛ نحن لا نرى أن الإنسان له الحق الأخلاقي في قتل ثور أو سمكة لاستخدامه الجسدي، فهو لم يضع الحياة فيها وبالتأكيد ليس لديه تفويض من الله تعالى بسلبهم الحياة إلا تحت أشد الحاجة الماسة؛ لذلك لا يمكننا استخدام هديتك إذا كنت سترسلها."

قلت له:

"ولكن يا سيدي أظن إذا رفضت في هذا المناخ المتقلب غير المضياف جميع الأطعمة المغذية التي تدعم حيويتك، فسوف تموت."

أجاب بابتسامة ساخرة:

"سوف نموت إذاً، والآن كابتن (ميدوز)، لا بُدَّ لي من تقديم أجر لك، وشكرًا لك على لطفك خلال الرحلة، وأنت أيضًا أيها الزميل وداعًا، ستقود سفينة خاصة بك قبل نهاية العام. أنا أثق سيد (ويست) أنني سأراك مرة أخرى قبل أن أغادر هذا الجزء من البلاد.. الوداع!"

رفع طربوشه الأحمر، وأمال رأسه النبيل في تحية مهيبة معبرة عن جميع أفعاله، وسار بعيدًا في الاتجاه الذي جاء منه.

قال القبطان لمساعده وهو يسير بين البيوت:

"دعني أهنئك، سيد (هوكينز)؛ فسوف تقود سفينتك الخاصة خلال عامٍ، لا يوجد مثل هذا الحظ!"

أجابه بابتسامة سعيدة على وجهه المضرج بالحمرة: "لا يعرف أحد كيف ستسير الأمور، ما رأيك فيه سيد (ويست)؟"

فقلت له: "أنا مولع به.. يا له من رأس وتفكير رائعين لشاب صغير السن! أعتقد أن عمره لا يمكن أن يتعدى ثلاثين عامًا."

قال مساعد القبطان: "أربعون."

قال الكابتن (ميدوز): "فعلياً ستون عامًا؛ لقد سمعته يتحدث بشكل مألوف عن الحرب الأفغانية الأولى. لقد كان رجلاً واعياً آنذاك، وقد وقعت أحداث تلك الحرب منذ أربعين عامًا."

"رائع!" قلت مبهورًا "بشرته ناعمة وعيناه واضحتان مثل بشرتي. إنه الكاهن الأعلى بين الثلاثة، بلا شك."

قال الكابتن بثقة: "بل هو أدناهم، لهذا السبب يقول كل الكلام عوضًا عنهم؛ فإن عقولهم سامية للغاية بحيث لا تستطيع النزول إلى مجرد ثرثرة دنيوية."

قلت: "إنهم أغرب مجموعة طرحها البحر على هذا الساحل، والدي سيهتم بهم بشدة."

قال (هوكينز):

"في الواقع، أعتقد أنه كلما قللت من التعامل معهم، كان ذلك أفضل بالنسبة لك، إذا صار لي سفينتي الخاصة فأعدك أنني لن أحمل على الإطلاق شخصًا من هذا النوع. ولكن هنا نحن جميعًا كنا على متن مركب واحدة وقد حان وقت الرحيل؛ لذلك يجب علينا أن نودعك."

كانت العربة قد انتهت لتوها من التحميل عندما وصلنا، وتم حجز الأماكن الرئيسية على جانبي السائق لرفيقيّ اللذين انطلقا إليها بسرعة مع عاصفة من الهتافات، وانطلق الزملاء الطيبون على الطريق، بينما وقفت أنا و (أستر) وأنا على العشب ولوَّحنا لهم بأيدينا حتى اختفوا خلف غابة كلومبر، في طريقهم إلى محطة ويجتاون للسكك الحديدية.

اختفت السفينة والطاقم الآن من عالمنا الصغير والبقايا الوحيدة منهم هي كومة من الحطام على الشاطئ، والتي ظلت مستقرة هناك حتى وصول مندوب من شركة (لويدز)[32].

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

(ما شاهدته، وغفلت عنه!)

في العشاء في ذلك المساء، ذكرت لوالدي حكاية الكهنة البوذيين الثلاثة، ووجدت -كما توقعت- أنه مهتم جداً بروايتي عنهم.

ومع ذلك، عندما سمع عن الطريقة التي تحدث بها (رام سينغ) عنه، والمكانة المتميزة التي وضعه فيها بين علماء اللغة، أصبح متحمسًا للقائه بشدة لدرجة أننا فعلنا كل ما يمكننا لمنعه من الانطلاق في ذلك الوقت للذهاب وللتعرف عليهم.

شعرت أنا و(أستر) بالارتياح والسرور عندما نجحنا أخيرًا في نزع حذائه عنه واقتياده إلى غرفة نومه؛ لأن الأحداث المثيرة في الأربع والعشرين ساعة الماضية كانت أكثر من اللازم لجسده الضعيف وأعصابه الحساسة أن يتحملوها.

كنت جالسًا في الشرفة المفتوحة وقت الغسق، وأسترجع في ذهني الأحداث غير المتوقعة التي تلاحقت بسرعة كبيرة؛ العاصفة والحطام والإنقاذ والشخصية الغريبة لهؤلاء المنبوذين عندما جاءت إليَّ أختي بهدوء ووضعت يدها عليَّ.

قالت بصوتها اللطيف:

"ألا تعتقد يا (جاك) أننا ننسى أصدقاءنا في كلومبر؟ هل تسببت تلك الأحداث المثيرة التي تعرضنا لها في طرد المخاوف والخطر المحيطين بهم من رؤوسنا؟"

قلت ضاحكًا:

"من رؤوسنا، نعم، ولكن ليس من قلوبنا، ومع ذلك، أنتِ على حق أيتها الصغيرة؛ لأن انتباهنا قد تشتت عنهم بالتأكيد، سأصعد في الصباح لأرى إن كان بإمكاني رؤية أي فرد منهم، بالمناسبة غداً هو يوم الخامس من أكتوبر المصيري، يوم واحد وكل شيء سيكون على ما يرام."

قالت أختي بشكل قاتم: "أو ليس على ما يرام.."

"لماذا، يا لك من متذمرة صغيرة!" صرخت فيها.

"ماذا انتابك، فقط أشعر بالتوتر والانفعال." واقتربت من جانبي وهي ترتجف "أشعر كما لو أن بعض المخاطر الكبرى قريبة من رؤوس أولئك الذين نحبهم؛ لماذا يرغب هؤلاء الرجال الغريبون في البقاء على الساحل؟"

قلت بخفة: "ماذا، البوذيون؟ أوه، هؤلاء الرفاق لديهم أيام أعياد مستمرة وطقوس دينية من جميع الأنواع. لديهم سبب وجيه للغاية للبقاء وأنا متأكد من ذلك."

قالت إستير في همس مندهشة: "ألا تعتقد أنه من الغريب جداً أن يصل هؤلاء الكهنة إلى هنا على طول الطريق من الهند في الوقت الحالي؟ ألم تفهم من كل ما سمعته أن مخاوف الجنرال مرتبطة بطريقة ما بالهند والهنود؟"

استرعت هذه الملاحظة على تفكيري وأجبت:

"الآن بعد أن ذكرت ذلك، صار لدي بعض الانطباع الغامض بأن اللغز مرتبطٌ بحادث وقعَ في تلك البلد. لكنني متأكد من أن مخاوفك ستختفي إذا رأيتِ (رام سينغ)؛ إنه تجسيد للحكمة والإحسان. لقد صُدم من فكرة قتْلنا للأغنام، أو حتى سمكة لأجله، قال إنه يفضِّل الموت على أن يكون له يد في قتل حيوان."

قالت أختي بشجاعة:

"من الحماقة أن أكون عصبية للغاية، لكن يجب أن تعدني بشيء واحد (جاك)، ستذهب إلى كلومبر في الصباح، وإذا كان بإمكانك رؤية أي منهم، يجب أن تخبرهم عن جيراننا الغرباء. إنهم أكثر قدرة على الحكم عليهم مما نحن عليه سواء كان لوجودهم أهمية أم لا."

أجبت أثناء ذهابنا إلى الداخل: "حسناً يا صغيرتي، لقد كنت متحمسة جداً لكل هذه الأعمال الوحشية وتحتاجين إلى راحة ليلية جيدة، سأفعل ما تقترحينه وسيحكم أصدقاؤنا بأنفسهم إن كان لهؤلاء الرفاق علاقة بالخطر المتربص بهم."

لقد وعدت بتهدئة مخاوف أختي، ولكن في ضوء الشمس الساطع في الصباح بدا من غير المعقول أن أتخيل أن رفاقنا المساكين يمكن أن يكون عندهم أي نوايا شريرة، أو أن قدومهم يمكن أن يكون له أي تأثير على مستأجر كلومبر.

كنت قلقاً من معرفة ما إذا كان بإمكاني رؤية أي شخص من آل هيذرستون، لذلك بعد الإفطار ذهبت إلى القاعة، في عزلتهم كان من المستحيل عليهم أن يعرفوا أي شيء عن الأحداث الأخيرة؛ لذلك، شعرت أنه حتى لو كان عليَّ مقابلة الجنرال، فإنه بالكاد يمكن أن يعتبرني متسللاً بينما لدي الكثير من الأخبار للتواصل بها معه.

كان المكان له نفس المظهر الكئيب الذي ميزه دائمًا، بالنظر بين القضبان الحديدية السميكة للبوابة الرئيسية، لم يكن هناك أي شيء يمكن رؤيته عن السكان. وقد احترقت إحدى أشجار السكوتش العظيمة في العاصفة، وكان جذعها الطويل الداكن يكمن مباشرة عبر الشارع الذي يزرع فيه العشب، ولكن لم تبذل أي محاولة لإزالته.

كانت كل الممتلكات تعيش جوًا من الخراب والإهمال، مع استثناء وحيد للسياج الضخمة التي لا يمكن اختراقها والتي شكلت عقبة ضخمة ومنيعة أمام أي منتهك لحرمة سكان المنزل.

مشيت حول هذا الحاجز أتفقد مكاننا القديم دون العثور على أي ثغرة من خلالها يمكنني إلقاء نظرة على المنزل؛ حيث تم إصلاح السور بحيث تداخل كل حاجز مع الآخر، وذلك لضمان الخصوصية

المطلقة لأولئك من يسكنون بالداخل، وسد تلك الفتحات التي استخدمتها سابقاً.

ومع ذلك، في البقعة القديمة، حيث أجريت مقابلة لا تنسى مع الجنرال في المناسبة عندما فاجأني مع ابنته، وجدت أن القضبان السائبة قد تم إصلاحها بطريقة كانت هناك فجوة بوصتين أو أكثر بينهما.

من خلال هذا كان لدي منظر للمنزل وجزء من الحديقة أمامه، وعلى الرغم من أنني لم أرَ أي علامات للحياة خارج أو في أيٍّ من النوافذ، فقد ثبت في مكاني على أمل الحصول على فرصة التحدث إلى أحد النزلاء أو غيرهم. في الواقع، وفي الحقيقة لقد بعث هذا المشهد البارد والمميت من المنزل الرجفة في قلبي لدرجة أنني قررت تسلق السياج دون النظر إلى الخطر أو التسبب في استياء الجنرال، بدلاً من العودة دون أنباء عن آل هيذرستون.

لحسن الحظ لم أكن في حاجة إلى تلك المجازفة؛ لأنه لم تمر سوى نصف ساعة قبل أن أسمع الصوت القاسي يأمر بفتح الأقفال وخرج الجنرال نفسه من الباب الرئيسي.

ولدهشتي كان يرتدي زيًّا عسكريًّا، لم يكن الزي الرسمي المستخدم في الجيش البريطاني؛ تم قطع المعطف الأحمر بشكل غريب وملطخ تأثرًا بالطقس. كان البنطال أبيض في الأصل لكنَّ لونه تلاشى الآن إلى اللون الأصفر القذر. مع وشاح أحمر على صدره وسيف مستقيم معلَّق إلى جانبه، وقف كتمثال الحي لضابط شركة جون التي أنشئت قبل أربعين عامًا.

تبعه المتشرد السابق، العريف (روفوس سميث) الذي ارتدى ملابس جديدة ومزدهرة يعرج إلى جانب سيده، وهما يقطعان الحديقة ذهاباً وإياباً ويتحدثان سوياً.

لاحظت أنه من وقتٍ لآخر كان أحدهما أو كلاهما يتوقف ويتلفت حوله كي يتأكد من عدم وجود متلصصين حولهما. كنت أفضِّل التواصل مع الجنرال وحده، ولكن بما أنه لم يكن هناك بدٌّ من فصله عن رفيقه، فقد ضربت على السياج بعصي محدثاً صوتاً عالياً لجذب انتباههم.

التفت كلاهما نحوي في نفس اللحظة واستطعت أن أرى من إيماءاتهم أنهم كانوا منزعجين ومذعورين.

ثم رفعت العصا فوق الحاجز لأريهم من أين صدرَ الصوت. في ذلك الوقت بدأ الجنرال يسير في اتجاهي جاهداً ببطءٍ، لكن الآخر أمسكَه من الرسغ وحاول إثناءَه.

فقط عندما صرخت باسمي وطمأنتهم أنني بمفردي استطعت أن أطلب منهم الاقتراب، وبمجرد التأكد من هويتي، ركض الجنرال بشغف نحوي واستقبلني بأقصى درجات الود.

قال:

"هذا كرمٌ منك.. سيد (ويست)، في مثل هذه الأوقات فقط يمكن للمرء أن يحكم على مَن هو صديق ومن ليس كذلك. لن يكون من الإنصاف أن اطلب منك أن تدخل أو تقيم في أي وقتٍ، لكنني سعيد جداً برؤيتك."

فقلت: "لقد كنت قلقاً بشأنكم جميعًا، لأنه مرَّ وقتٌ ليس بقصيرٍ منذ أن رأيت أو سمعت أحداً منكم. كيف كان حالكم جميعًا؟ "

"كما هو متوقع. لكننا سنكون أفضل غداً، سنكون رجالاً مختلفين للغد، أليس كذلك أيها العريف؟ "

قال العريف: "نعم يا سيدي" وهو يرفع يده إلى جبهته في تحية عسكرية."

وأوضح الجنرال:

"أنا والعريف أذهاننا مشغولة قليلاً الآن، ولكن ليس لدي شك في أن كل شيء سيسير بشكلٍ صحيحٍ. بعد كل شيء، لا يوجد ما هو أعلى من العناية الإلهية ونحن جميعًا بين يديها. وكيف حالك، هه؟ "

قلت: "لقد كنا مشغولين للغاية لشيءٍ واحدٍ، أفترض أنك لم تسمع شيئاً عن حطام السفينة العظيمة؟ "

أجاب الجنرال بلا تردُّد: "ولا كلمة."

"اعتقدت أن ضجيجَ الرياح سيمنعك من سماع بنادق الإشارة. لقد وصلتْ إلى الشاطئ في الخليج في الليلة الماضية سفينة عظيمة من الهند."

"مِن الهند!" هتف الجنرال.

" نعم.. لحسن الحظ، تم إنقاذ طاقمها وتم إرسالهم جميعًا إلى غلاسكو."

صرخ "الجميع" وصار وجهه بلا دماء مثل الجثة.

"جميعهم باستثناء ثلاث شخصيات غريبة يدعون أنهم كهنة بوذيون، لقد قرروا البقاء لبضعة أيام على الساحل."

بمجرد أن خرجت الكلمات من فمي سقط الجنرال على ركبتيه ومدَّ ذراعيه الطويلتين الرقيقتين إلى السماء صارخًا بصوت متهدج: "لتكن مشيئتك! ولتحل بركاتك!"

استطعت أن أرى من خلال السياج أن وجه العريف (روفوس سميث) قد تحوَّل إلى ظِلٍّ أصفر مريض، وأنه كان يمسح العرق من جبينه قائلاً: "إنه حظي! بعد كل هذه السنوات عندما أتيت لأحصل أخيرًا على وظيفة مستقرة."

قال الجنرال وهو يرفع كتفيه مثل الرجل الذي يستعد لجهد:

"لا تهتم يا غبي، أيًّا كان الأمر فيجب أن نواجهه كما يجدر بالجنود البريطانيين. هل تذكر في (تشيليانوالاها)، عندما كان عليك الركض وسط المدافع إلى ساحة القتال، وجاءت خيول السيخ كالرعد ونحن نواجهها بحرابنا؟ لم نتراجع حينها، ولن نتراجع الآن. يبدو لي أنني أشعر بتحسن عما كنت عليه منذ سنوات؛ كان عدم اليقين هو الذي يقتلني".

قال العريف:

"يا لهذا النداء الشيطاني.. حسناً، سنموت جميعًا، في هذا بعض العزاء."

قال الجنرال: "وداعًا يا (ويست) كن زوجًا جيداً لغابرييل، وأعطِ لزوجتي المسكينة منزلاً، لا أعتقد أنها ستزعجك طويلاً. إلى اللقاء! بارك الله فيك!"

فقلت: "انتظر أيها الجنرال "وأنا أقطع قطعةً من السياج الخشبي لجعل التواصل أكثر سهولة "ما هذه التلميحات الإشارات؟ لقد حان الوقت للقليل من الكلام البسيط. ما الذي تخشاه؟ انطق! هل أنت خائف من هؤلاء الهنود؟ إذا كنت كذلك، فبإمكاني -بعد إذنٍ من والدي- أن أعتقلهم كمحتالين ومتشردين."

أجاب وهو يهز رأسه: "لا، لا، هذا لن يحدث، ستتعرف على العديد من الأعمال الرهيبة في وقت قريب بما يكفي. يعرف (موردونت) أين يضع يده على الأوراق التي تفسر هذه المسألة. يمكنك سؤاله بشأنها غداً"

صرخت: "لكن بالتأكيد إذا كان الخطر وشيكًا جداً، فيمكن القيام بشيء ما لتفاديه. إذا كنت ستخبرني بما تخشاه فسأعرف كيف أتصرف."

قال:

"يا صديقي العزيز، لا يوجد شيء يجب القيام به؛ لذا اهدأ، ودع الأمور تأخذ مجراها. لقد كنت أحمقَ بأن أحمي نفسي خلف بضعة حواجز من الخشب والحجر. الحقيقة هي أن هذا التقاعس كان فظيعًا بالنسبة لي وشعرت أن القيام بأي شيء مهما كان عقيمًا، ولكن من باب الحيطة كان أفضل من الاستسلام بسلبية. صديقي الوضيع هنا وأنا وضعنا أنفسنا في موقف أثق أنه لن يجد أيٌّ بائسٍ نفسه فيه مرة أخرى. لا يسعنا إلا أن نوصي أنفسنا بخير الله عز وجل، ونثق في أن ما عانينا منه في هذا العالم قد يقلل من عذابنا في العالم الآخر مستقبلاً. يجب أن أتركك الآن، لأن أمامي العديد من الأوراق لإتلافها والكثير من الترتيبات. وداعًا!"

دفع يده من خلال الثقب الذي صنعته، وأمسك بي في وداع مهيب، وبعد ذلك عاد إلى القاعة بخطوات حازمة ولا يزال يتبعه العريف الأعرج.

عدت إلى برانكسوم منزعجًا كثيرًا من هذه المقابلة، ومحتار للغاية بشأن المسار الذي يجب أن أتبعه.

كان من الواضح الآن أن شكوك أختي كانت صحيحة، وأن هناك علاقة وثيقة للغاية بين وجود الشرقيين الثلاثة والمخاطر الغامضة التي تحيق بأبراج كلومبر.

كان من الصعب بالنسبة لي أن أربط بين أسلوب (رام سينغ) اللطيف وكلماته الحكيمة ووجهه النبيل وأي أعمال عنف، ولكن الآن بعد أن فكرت في ذلك، يمكنني أن أرى أن القدرة الرهيبة على الغضب قد تكمن وراء حاجبيه الأشعثين والظلام المطِلّ من العيون ثاقبة النظر.

شعرت أنه من بين جميع الرجال الذين قابلتهم في حياتي كان هو آخر شخصٍ يجب أن أهتم بمواجهته. ولكن كيف يمكن لرجلين أن ينفصلا على نطاق واسع لدرجة أن كلا منً عريف المدفعية

القديم الخبيث والجنرال الأنجلو -هندي المتميز قد شعرا سوء نية تجاه هؤلاء المنبوذين الغريبين؟ وإذا كان الخطر جسديًا حقيقيًا؛ فلماذا لا يوافق على اقتراحي بوضع الرجال الثلاثة قيد الاحتجاز؟ على الرغم من أنني أعترف أن ذلك يتعارض مع طباعي بشكل كبير في التصرف بطريقة غير مضيافة.

كانت هذه الأسئلة غير قابلة للإجابة على الإطلاق، ومع ذلك فإن الكلمات الجليلة والخطورة الرهيبة التي رأيتها في وجهيّ كلٍّ من الجنديين القديمين تمنعني من التفكير في أن مخاوفهم لا أساس لها من الصحة.

كان الأمر كله لغزًا، لغزًا غير قابل للحل على الإطلاق.

كان هناك شيء واحد على الأقل كان واضحًا لي، وهو أنه في حالتي الحالية وبعد الكتمان التام من الجنرال، كان من المستحيل بالنسبة لي أن أتدخل بأي شكلٍ من الأشكال. كان بإمكاني الانتظار والدعاء أنه مهما كان الخطر رهيبًا أن يتجاوزه، أو على الأقل أن تكون عزيزتي (غابرييل) وشقيقها محميين منه.

كنت أسير في الممر تائهًا في أفكاري، ووصلت إلى البوابة الصغيرة المؤدية إلى حديقة برانكسوم، عندما فوجئت بسماع صوت والدي العالي مفعمًا بالحيوية والإثارة.

كان الرجل العجوز منغمسًا للغاية في الشؤون اليومية كعالم، متعمقًا في دراساته الخاصة، لدرجة أنه كان من الصعب جذب انتباهه إلى أي موضوع عادي دنيوي. من الغريب أن أعرف ما الذي دفعه للخروج من عزلته. فتحت البوابة بهدوء وسرت ببطء حول شجيرات الغار ووجدته جالسًا، واندهشت عندما وجدت أنه لم يكن جالسًا سوى مع الرجل الذي يشغل أفكاري..

(رام سينغ) البوذي!

كان الاثنان يجلسان على أريكة في الحديقة، وبدا الرجل الشرقي وكأنه يضع بعض المقترحات الثمينة، ويعدِّد كل نقطة على أصابعه الطويلة المرتجفة والبنية، بينما كان والدي يشيح بوجهه ويلوح بيده بصوتٍ عالٍ في احتجاج.

لقد انغمسوا بشدة في جدالهم حتى إنني وقفت على بُعدِ ذراع منهم لمدة دقيقة أو أكثر قبل أن يدركا وجودي!

عندما رآني الكاهن انتصب على قدميه واستقبلني بنفس المجاملة النبيلة والتحية الكريمة التي أعجبتني بالأمس.

قال:

"لقد وعدتك بنفسي بالأمس، يسرني أن أتواصل مع والدك. لقد رأيت أنني حافظت على كلمتي، ولقد تجرأت بما يكفي للتشكيك في آرائه بشأن بعض النقاط فيما يتعلق باللغات السنسكريتية والهندوسية

والنتيجة أننا تناقشنا لمدة ساعة أو أكثر دون أن يقنع أيٌّ منا الآخر دون التظاهر بمعرفة نظرية عميقة مثل تلك التي جعلت اسم (جيمس هانتر ويست) معروفاً بين علماء الشرق، تصادف أنني أعطيت اهتمامًا كبيرًا لهذه النقطة والواقع أنني في وضع يسمح لي أن أقول إنني أعتقد أن نظرياته غير سليمة؛ أؤكد لكم، سيدي، أنه حتى عام 700م، أو في وقتٍ لاحقٍ لذلك التاريخ كانت السنسكريتية هي اللغة الرسمية للجزء الأكبر من سكان الهند."

قال والدي بحرارة:

"أؤكد لك يا سيدي أنها اندثرت ونسيت في ذلك التاريخ، باستثناء المتعلمين الذين استخدموها كوسيلة للأعمال العلمية والدينية - تمامًا كما تم استخدام اللاتينية في العصور الوسطى وبعد فترة طويلة تم توقف التحدث بها من قبل أي دولة أوروبية".

قال رام سينغ: "إذا رجعت إلى البروناز ([33]) فستجد أن هذه النظرية، على الرغم من تقبلُّها بشكل عام، لا يمكن الدفاع عنها تمامًا."

صاح والدي:

"إذا راجعت كتاب رامايانا ([34])، وبالأخص الكتب المتعارف عليها حول الأدب البوذي، فستجد أن هذه النظرية لا يمكن إنكارها."

قال زائرنا بجدية: "لكن ارجع إلى كتب (كولافجا)."

صاح والدي منتصرًا:

"انظر إلى الملك أشوكا؛ عندما أمر في عام 300 قبل الميلاد بنقش قوانين بوذا على الصخور، ما هي اللغة التي استخدمها؟ السنسكريتية؟ لا! ولماذا لم تكن السنسكريتية؟ لأن الرتب الدنيا من رعاياه ما كانوا ليتمكنوا من فهم كلمة واحدة. ها، ها! كان هذا هو السبب. كيف ستجادل حول مراسيم الملك أشوكا، هه؟"

أجاب رام سينغ: "لقد نحتهم باللهجات المختلفة، لكن الطاقة ثمينة للغاية ولا يمكن إهدارها في مجرد جدال بهذا الأسلوب. لقد تجاوزت الشمس خط الزوال ويجب أن أعود إلى رفاقي."

قال والدي بلطف: "أنا آسف لأنك لم تحضرهم لرؤيتنا."

لقد كان أبي- كما أرى- غير مرتاح لذلك الجدل الدائر الذي حمله على تجاوز حدود الضيافة.

أجاب رام سينغ وهو يقف على قدميه:

"إنهم لا يختلطون مع العالم؛ إنهم على درجة أعلى مني وأكثر حساسية للمؤثرات الملهية. إنهم مشغولون في التأمل لمدة ستة أشهر على لغز التجسد الثالث، واستمروا على ذلك حتى مع بعض

الاستراحات من الوقت الذي غادرنا فيه جبال الهيمالايا. لن أراك مرة أخرى، سيد (هانتر ويست)، ولذا وجب عليّ أن أودّعك..

وداعًا لك، ستكون شيخوختك سعيدة كما تستحق، وسيكون لدراساتك في اللغات الشرقية تأثير دائم على المعرفة والأدب الخاص ببلادك، وداعًا!"

"ولن نراك مرة أخرى؟" سألته.

أجاب: "ما لم تمشِ معي على شاطئ البحر، لكنك خرجت بالفعل هذا الصباح وقد تكون متعبًا. وأكون بذلك أطلب الكثير منك."

رددت عليه من قلبي: "كلا، سأكون سعيداً بالمجيء معك."

وانطلقنا معًا برفقة والدي لمسافة صغيرة والذي كان من دواعي سروره أن يعيد فتح الجدل حول السنسكريتية ولم يكن لديه مخزون جيد من التنفس، فقد كان محدوداً جداً بحيث لا يسمح له بالتحدث والمشي في نفس الوقت.

وعلق (رام سينغ) بعد أن تركناه وراءنا قائلاً:

"إنه رجل متعلِّم، لكنه مثل العديد من أمثاله؛ غير متسامح تجاه الآراء التي تختلف مع آرائه. وسوف يعرف بشكل أفضل في يوم من الأيام."

لم أجد إجابة على هذه الملاحظة ومشينا لفترة من الوقت في صمتٍ بمحاذاة حافة المياه حيث وفرت لنا الرمال موطئ قدم جيداً.

شكلَّت الكثبان الرملية التي تصطف على الساحل سلسلة متواصلة على يسارنا، مما أدى إلى حجبنا تمامًا عن جميع عيون البشر، بينما على اليمين امتدت القناة العريضة لتكسر بصعوبة تجانسها الفضي. كنت أنا والراهب البوذي وحدنا في الطبيعة.

لم أستطع أن أفكر في أنه الرجل الخطير كما اعتبره مساعد القبطان، أو ما استدليت عليه من كلمات الجنرال هيذرستون. كنت قد وضعت نفسي بالكامل تحت سلطته.

ومع ذلك، كان مظهره المهيب والهدوء الذي لا يفارق عينيه الداكنتين العميقتين، جعلاني أضع الخوف والشك وراء ظهري مع هبات النسيم التي تضربه بخفة.

قد يكون وجهه صارمًا، وحتى رهيباً لكنني شعرت أنه لا يمكن أن يكون ظالمًا أبداً.

بينما كنت ألقى نظرة خاطفة من وقتٍ لآخر على مظهره النبيل ولحيته السوداء الممتدة، اصطدمت بزيه البسيط الخشن، وشعرت بحِسٍّ مؤلم من التناقض فأعدت كسيه في مخيلتي ليرتدي زياً شرقياً نظيفاً ليصبح في الإطار المناسب والملائم لمثل هذه الصورة، الزي الوحيد الذي لا ينتقص من كرامة واحترام مرتديه.

كان المكان الذي قادني إليه عبارة عن كوخ صغيرٍ كان مهجورًا لبضع سنوات من قبل المستأجر، لكنه كان لا يزال يقف هزيلاً وعارياً مع طلائه المتطاير جزئياً والنوافذ والأبواب في حالة متردية.

كان هذا المسكن الذي من الممكن أن يتخلى عنه المتسول الإسكتلندي الأكثر فقرًا، هو ما فضله هؤلاء الرجال الفرادى على الضيافة المقدمة في منزل الوكيل!

حديقة صغيرة بها كتلة من الشجيرات المتشابكة، وقفت وسطها، ومن خلالها شققت طريقتي إلى الباب المتهالك. دلف إلى المنزل ثم أشار إليَّ بيده لأتبعه. وقال بصوت خافت ورخيم:

"أمامك الآن فرصة لرؤية مشهد لا يتمتع به سوى القليل من الأوروبيين.

داخل هذا الكوخ ستجد اثنين من اليوغيين من أعلى مستوى من الصفوة، كليهما مستغرق في نشوة أقرب إلى الغيبوبة، وإلا ما كنت جرؤت أن أدعك تدخل عليهم.

وقد غادرت أجسامهم النجمية، لتتواجد في عيد المصابيح في كنيسة لامودري المقدسة في التبت. سر بخفة وإلا ستتم استعادة أرواحهما من هناك قبل اكتمال الولاءات."

مشينا ببطءٍ وعلى أطراف أصابع أقدامنا، قطعت طريقي عبر الحديقة المزروعة بالأعشاب المؤذية ونظرت عبر المدخل المفتوح.

لم يكن هناك أثاث في الكوخ الكئيب، ولا يوجد أيُّ شيءٍ لتغطية الأرضية غير المستوية باستثناء الرمل والقش الطازج المتكوم في الزاوية.

فوق القش كان الرجلان منحنيين، أحدهما ضئيل تبدو عليه العظمة، والآخر ضخم الحجم وباهت الوجه، وأرجلهما متقاطعة بطريقة شرقية ورأساهما مائلان على صدريهما. لم يرفع أيٌّ منهما رأسه، ولم يشعرا ولو بإحساس بسيط بوجودنا!

كانا لا يزالان صامتين لدرجة أنهما بدوا كتمثلين برونزيين ولكن بإيقاع تنفُّس بطيء. ومع ذلك، كان لوجهيهما لون غريب؛ رمادي شاحب مختلف تمامًا عن اللون البني الصحي لرفيقي، ولاحظت عندما أخفضت رأسي أن عيونهما كانت بيضاء تمامًا، وكانت كرات العين تتجه لأعلى تحت جفونهما.

أمامهما على حصيرة صغيرة وُضِع إبريق من الفخار به ماء ونصف رغيف من الخبز إلى جانب ورقة مكتوبة بشخصيات صوفية معينة. نظر (رام سينغ) إليهما ثم دفعني للخروج وتبعني إلى الحديقة.

وقال:

"لن أزعجهم حتى الساعة العاشرة، لقد رأيت الآن في واحدة من أعظم نتائج فلسفتنا الغامضة؛ استقلال الروح عن الجسد، ليس فقط أرواح هؤلاء الرجال المقدسين الذين يقفون في الوقت الحاضر على ضفاف نهر الغانج، ولكن تلك الأرواح تسكن في مادة تتطابق مع أجسادهم الحقيقية لدرجة أن أيًّا من المؤمنين لن يشك في أن لال حومي ومودر خان من بينهم.

يتم تحقيق ذلك من خلال قدرتنا على تحويل الروح إلى ذرات كيميائية ونقل هذه الذرات بسرعة تفوق سرعة البرق إلى أي بقعة معينة، ومن ثم إعادة تحريكها وإجبارها على استعادة شكلها الأصلي. من القديم، في أيام جهلنا كان من الضروري نقل الجسم كله بهذه الطريقة، لكننا وجدنا منذ ذلك الحين أنه كان من السهل والأكثر ملاءمة نقل ما يكفي لمجرد بناء غلاف خارجي أو مظهر. لقد أطلقنا على ذلك اسم (الجسم النجمي).

لاحظت: "لكن إذا استطعتم نقل أرواحكم بسهولة، لماذا يجب أن يرافقها أي جسد؟ "

"في التواصل مع الإخوة يمكننا توظيف أرواحنا فقط، ولكن عندما نرغب في الاتصال بالبشر العاديين من الضروري أن نظهر بشكل ما يمكنهم رؤيته وفهمه."

"لقد كنت مهتمًا بعمق بكل ما قلته لي" ثم مدَّ (رام سينغ) يده نحوي كعلامة على أن مقابلتنا انتهت.

"سأفكر كثيرًا في تلك المعرفة التي قدمتها لي."

قال ببطء: "ستستفيد منها كثيرًا" وظلَّ ممسكًا بيدي وينظر في عينيّ بشكل محزن "يجب أن تتذكر أن ما سيحدث في المستقبل ليس بالضرورة أن يكون سيئاً لمجرد أنه لا ينسجم مع أفكارك المسبقة عن الحق. لا تتسرع في أحكامك؛ هناك بعض القوانين العظيمة التي يجب تنفيذها بأي ثمن على الأفراد."

قد تبدو لك قوانينهم قاسية ومجحفة، ولكن هذا لا يقارن مع المخاطر الشديدة التي من الممكن أن تحدث حال عدم تطبيقها. الثور والأغنام في مأمن منا، ولكن الإنسان الذي لطخت يداه بالدماء لا ينبغي له أن يعيش.. ولن يعيش."

ألقى الكلمات الأخيرة بإيماءة شرسة وبنبرة تهديد، وابتعد عني، وسار إلى الكوخ المتهالك.

وقفت أحدق فيهه حتى اختفى عبر مدخل الكوخ، ثم انطلقت للبيت يدور في ذهني كل ما سمعته، ولا سيما هذا التهديد الأخير للفيلسوف الغامض.

على اليمين، استطعت أن أرى برج كلومبر الأبيض الطويل القامة يقف واضحًا وحادًا أمام سحابة مظلمة ارتفعت وراءه. فكرت كيف سيحسد أي مسافر مر بهذ الطريق المستأجر القاطن في هذا المبنى الرائع، وكم سيخمن القليل من الرعب الغريب، والأخطار المجهولة، التي تتجمع حول رأسه.

كانت سحابة الغيوم السوداء هي صورة تعكس العاصفة الأكثر قتامة والأشد قوة التي كانت على وَشْكِ الهبوب.

هتفت: "إنما كل ما يعنيه ذلك، ومهما حدثَ، فقد وعد الله أن لا يأخذ الأبرياء بخطايا المذنبين."

والدي -عندما وصلت إلى المنزل- كان لا يزال في حالة من الغضب بسبب نقاشه العلمي مع الغريب. قال:

"أنا أثق يا (جاك) بأنني لم أتعامل معه بقسوة. يجب أن أتذكر أنني في منصب الوكيل، ويجب أن أكون أقل عرضة للجدل مع ضيوفي، ومع ذلك، عندما تبنى هذا الرأي الغريب لم أستطع الامتناع عن مهاجمته وإبعاده عنه، وهو ما فعلته بالفعل وربما لأنك تجهل تفاصيل ذلك الجدال فقد فشلت في ملاحظة ذلك.

لقد لاحظت أيضًا أن إشارتي إلى مراسيم الملك أشوكا كانت حاسمة للغاية، لدرجة أنه قام في الحال ورحل سريعًا."

"لقد واجهته بشجاعتك الفائقة." أجبت.

"ولكن ما هو انطباعك عن الرجل الآن؟ "سألت والدي.

أجاب:

"هو واحد من هؤلاء الرجال القديسين الذين لهم أسماء مختلفة من (رهبان) و (يوغيين) و (المؤهلين) و (الحكماء) و (الصوفيين) كرَّسوا حياتهم لدراسة أسرار الإيمان البوذي. إنه -على ما أظن- ثيوصوفي أو عابد لإله المعرفة، وأعلى درجاته هو الماهر، هذا الرجل وأصحابه لم يصلوا إلى هذا المنصب الرفيع أو أنهم لم يتمكنوا من عبور البحر دون تلوث. من المحتمل أنهم جميعًا شيلات([35]) متقدِّمة يأملون في الوقت المناسب أن يصلوا إلى الشرف الأعلى لامتياز."

"لكن، أبي.." قاطعَتْه أختي- "هذا لا يفسر لماذا يجب على الرجال من هذه القداسة والإنجازات أن يختاروا البقاء على شواطئ خليج إسكتلندي مهجور."

أجاب والدي: "آه، هذا شيء يتجاوز معرفتي، ولكني قد أقترح أنه ليس من شأن أحد عداهم، طالما أنهم يحافظون على السلام وخاضعون لقانون الأرض."

سألت: "هل سمعت من قبل أن هؤلاء الكهنة الأعلى الذين تتحدث عنهم لديهم قدرات خارقة غير معروفة لنا؟ "

"الأدب الشرقي مليء بها، الكتاب المقدس في الأصل هو كتاب شرقي، أليس مليئاً بحوادث عديدة مُثِّلت هذه القدرات الخارقة من الغلاف إلى الغلاف؟ من المؤكد أنهم عرفوا في الماضي العديد من أسرار الطبيعة التي فقدناها، ولكن لا يمكنني القول من علمي الخاص أن الثيوصوفيين المعاصرين يمتلكون بالفعل القدرات التي يدعونها."

"هل هم فئة انتقامية من الناس؟ " أنا سألت. "هل هناك جريمة بينهم لا يمكن أن يكون عقابها إلا الموت؟ "

أجاب والدي: "لا أعرف "، ثم رفع حاجبيه الأشيبين على حين غرة وقال: "يبدو أنك في حالة فضولية اليوم، ما هو الهدف من كل هذه الأسئلة؟ هل أثار جيراننا الشرقيون فضولك أو شكوكك بأي شكل من الأشكال؟ "

رفضت الإجابة عن السؤال بأفضل ما أستطيع؛ لأنني لم أكن على استعداد لإعلام الرجل العجوز بما يدور في خاطري. لا يوجد طائل من معرفته بذلك الأمر؛ يتطلب سنه وصحته الراحة بدلاً من القلق، وبالفعل، مع أفضل إرادة في العالم، كان من الممكن أن أجد صعوبة في شرح لآخر ما هو غامض جداً بالنسبة لي.

لكل تلك الأسباب شعرت أنه من الأفضل أن تبقى أفكاري في الظلام.

لم يمر عليّ في حياتي يوم مثلما حدثَ في الخامس من أكتوبر. سعيت بكل طريقة ممكنة إلى الابتعاد عن ساعات العمل الشاقة، ومع ذلك بدا وكأن الظلام لن يصل أبداً.

حاولت القراءة، وحاولت الكتابة، وسرت بخطى حثيثة في الحديقة، وسرت حتى نهاية الممر، ووضعت طعمًا جديداً على خطافات صيد السمك، وبدأت بفهرسة مكتبة والدي - بدستة من الطرق سعيت إليها تخفيف القلق الذي أصبح لا يطاق.

كنت أرى أختي تعاني من نفس القلق المحموم، مرارًا وتكرارًا، أبونا الصالح احتج علينا بطريقته الهادئة على سلوكنا المضطرب ومقاطعتنا المستمرة لعمله.

ولكن أخيرًا تم إحضار الشاي وشربناه، وتم إسدال الستائر وأضيئت المصابيح، ثم تمت قراءة الصلوات وذهبَ الخدم إلى غرفهم. لقد كظم والدي غيظه تجاهنا وتجاهل قلقنا المتزايد، ثم جرَّ قدميه نحو غرفته، تاركًا كلينا في الردهة مع أعصابنا المشدودة وعقولنا المليئة بأكثر المخاوف غموضًا ورهبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

(الزائر المهرول ليلا في الطريق)

أشارت ساعة الصالون إلى العاشرة والربع عندما ذهب والدي إلى غرفته، وبقيت مع (إستر) حتى سمعنا خطواته البطيئة تتلاشى مع صرير الدرج، وأعلن صوتُ انزلاق باب بعيد أنه وصل إلى غرفته.

ألقى مصباح الزيت البسيط على الطاولة ضوءًا غريبًا باهتًا فوق الغرفة القديمة، وانعكس على ألواح البلوط المنحوتة ملقيًا ظلالاً غريبة ورائعة على الأثاث. ظهر وجه أختي الشاحب القلِق في حالة واضحة من الغموض والقلق فبدت كإحدى لوحات رامبرانت الكئيبة!

جلسنا مقابل بعضنا البعض على جانبي الطاولة في صمتٍ مُطبَق لا يكسره سوى صوت حركة بندول الساعة والنقيق المتقطع لطيور الكريكيت تحت النافذة.

كان هناك شيءٌ مذهل في السكون المطلق، كان صفير الفلاحين المتأخرين في العودة وهم على الطريق السريع بمثابة ارتياح لنا، وقمنا بإرهاف السمع وهم يسيرون بثبات إلى المنازل.

في البداية تظاهرنا بالانشغال -هي في الحياكة وأنا في القراءة -لكننا سرعان ما تخلينا عن الخداع غير المجدي، وجلسنا منتظرين بسهولة، وبدأنا نتبادل النظرات مع بعضنا البعض مع استجواب العيون كلما طقطق الحطب في النار أو جرى جرذ وراء الألواح الخشبية. كان هناك جوٌّ عامٌ مفعمٌ بالقلق، الأمر الذي حملنا على توقع كارثة.

نهضت وفتحت باب القاعة لاستنشاق نسيم الليل المنعش.

اجتاحت الغيوم الخشنة السماء، وكان القمر يتلألأ في بعض الأحيان بين أطرافها المتسارعة، يغمر الريف بأكمله بضوئه الأبيض الرقيق. ومن مكاني عند المدخل استطعت رؤية أطراف غابة كلومبر، على الرغم من أن المنزل نفسه كان مرئيًا فقط على بُعد مسافة صغيرة من الأرض المرتفعة. بناء على اقتراح أختي مشينا معًا مرتدية شالها فوق رأسها، حتى قمة إحدى التلال ونظرت في اتجاه المبنى.

لم يكن هناك إضاءة للنوافذ الليلة، من السقف إلى الطابق السفلي لم يكن هناك أي وميض للضوء في أي جزءٍ من المبنى الكبير. بدا هيكله الضخم في الظلام وسط الأشجار التي أحاطت به وكأنه تابوت عملاق وليس منزلاً يسكنه بشر!

بالنسبة لأعصابنا المحترقة كان حجمه وسكونه الرهيب يبعثان على الرعب، وقفنا لبعض الوقت ننظر إليه خلال الظلام، ثم عدنا مرة أخرى إلى ردهة منزلنا، حيث جلسنا ننتظر وننتظر، لم نكن نعرف ماذا ننتظر، ولكن كان لدينا اقتناع مُطلَق أن هناك تجربة رهيبة في انتظارنا.

كانت الساعة الثانية عشرة أو ما يقرب من ذلك عندما انتفضت أختي فجأة وهبت واقفة على قدميها ورفعت أصابعها لتوجيه الانتباه وسألت: "هل تسمع شيئاً؟ "

أرهفت السمع، ولكن دون جدوى.

صرخت بصوت مرتجف: "تعالَ إلى الباب، الآن هل يمكنك سماع أي شيء؟ "

في صمت الليل العميق سمعت بوضوح صوتاً باهتاً، مغمورًا، مشتتاً، ومستمرًا على ما يبدو ولكنه ضعيف جداً ومنخفض.

"ما هذا؟ "سألت بصوت خافت.

أجابت: "إنه صوت رجل يركض نحونا "، ثم -وبطريقة تلقائية- ركعت على ركبتيها بجانب الطاولة وبدأت في الصلاة بصوت عالٍ يتملكه خوف شديد حتى تحولت صلاتها إلى ما يشبه الأنين النصف هيستيري!

استطعت تمييز الصوت بوضوح كافٍ الآن لأتأكد أن حسها الأنثوي المرهف لم يخدعها، وأن سبب ذلك الصوت هو فعلاً رجلٌ يجري.

عند وصوله إلى الطريق السريع، كانت قدماه تطرقان الأرض أكثر وضوحًا في كل لحظة، يجب أن يكون رسولاً متعجلاً؛ لأنه لم يوقف سرعته ولم يتباطأ.

تغير صوت الخطوات السريعة الواضحة على الأرض فجأة إلى خطوات بطيئة ومكتومة؛ لقد وصل إلى المكان الذي تمتد فيه الرمال لمائة ياردة أو نحو ذلك، ومع ذلك وفي غضون لحظات قليلة، عاد مرة أخرى على الأرض الصلبة وصارت خطواته الطائرة كأقرب ما يكون.

يجب أن يكون على رأس الطريق.. هل سيتوقف؟

أم أنه سيلجأ إلى برانكسوم؟

عندما سمعته من بعيد وهو يغير اتجاهه نحو ركن الطريق تقبَّل عقلي بصعوبة تلك الفكرة التي ألحت عليه منذ أن سمع صوت عدو ذلك الرجل، لقد كان هدفه بلا شك أن يلجأ إلى منزل الوكيل!

اتجهت إلى بوابة الحديقة، وعندما وصلت إليها كان زائرنا قد قام بفتحها وسقط بين ذراعي. كنت أرى في ضوء القمر أنه ليس سوى (موردونت هيذرستون)!

"ماذا حدث؟ "صرخت.

"هل هناك مكروه أصابكم، (موردونت)؟ "

قال لاهثاً: "أبي! "

سقطت قبعته واتسعت عيناه رعباً، وشحب وجهه مثل جثة. شعرت أن يديه اللتين تعلقتا بذراعي كانتا ترتجفان وتهتزان بشدة. قلت له وأنا أقوده إلى صالة الاستقبال:

"أنت مرهق، امنح نفسك قسطًا من الراحة قبل أن تتحدث إلينا. كُنْ هادئاً يا رجل، أنت مع أفضل أصدقائك."

وضعته على الأريكة القديمة المصنوعة من شعر الخيل، في حين أن (إستير)، التي ذهبت مخاوفها الآن بعد أن تأكدت من حلول الكارثة وضعت بعض البراندي في كأس وأحضرتها إليه.

كان للشراب تأثير رائع عليه؛ حيث بدأ الدم يتدفق إلى خديه الشاحبين، وعاد ضوء الحياة ليلمع في عينيه.

جلس وأخذ يد (إستير) بين يديه، مثل رجل يستيقظ من كابوس مزعج ويود أن يؤكد لنفسه أنه في أمان حقاً.

سألته: "أبوك؟ ماذا عنه؟"

"لقد رحل."

"ذهب!"

"نعم، لقد رحل، وكذلك العريف (روفوس سميث)، لن نراهما مرة أخرى."

هتفت مستنكرًا:

"ولكن أين ذهبا؟ هذا غير جدير بك يا (موردونت)؛ ما الفائدة في أن نجلس هنا ونسمح لمشاعرنا الخاصة أن تتغلب علينا، في حين أن هناك إمكانية لإعانة والدك؟ يا رجل! دعنا نتبعه، أخبرني فقط عن الاتجاه الذي ذهب فيه."

أجاب الشاب (هيذرستون)، وهو يدفن وجهه بين كفيه:

"لا جدوى، ولا تؤنبني، (ويست)، فأنت لا تعرف كل الظروف. ماذا يمكننا أن نفعل لمقاومة القوى الهائلة وغير المعروفة التي تعمل ضدنا؟ لطالما كانت الضربة تنتظرنا، والآن سقطت.. فليساعدنا الله!"

قلت بحماسٍ: "باسم السماء أخبرني ماذا حدث؟ يجب ألا نستسلم لليأس."

أجاب: "لا يمكننا فعل شيء حتى الفجر". وأضاف: "سنسعى بعد ذلك لاقتفاء بعض آثارهم. لا أمل في الوقت الحاضر."

سألته: "وماذا عن (غابرييل) والسيدة (هيذرستون)؟ ألا يمكننا أن نجعلهما يخرجان من المبنى في الحال؟ يجب ألا تشعر أختك المسكينة بالرعب."

أجاب (موردونت):

"إنها لا تعرف شيئاً عن ذلك؛ فهي تنام في الجانب الآخر من المنزل، ولم تسمع أو ترى أيَّ شيءٍ. أما بالنسبة لأمي المسكينة، فقد توقعت حدوث هذا الحدث منذ فترة طويلة لدرجة أنها لم تُفاجأ، بالطبع هي غارقة في الحزن، ولكنني أعتقد أنها تفضل أن تكون بمفردها في الوقت الحالي. يجب أن تكون صلابتها ورباطة جأشها درسًا لي، لكنني سريع الانفعال وهذه الكارثة وقعت بعد فترة طويلة من القلق امتدت لفترة."

قلت: "إذا لم يكن هناك شيء يمكن فعله حتى الصباح، فلديك الوقت لتقول لنا كل ما حدث."

أجاب قائلاً: "سأفعل ذلك، أنت تعلم بالفعل أنه كان لدينا سببٌ ما -لسنوات عديدة في الواقع- للخوف من أن عقاباً رهيباً كان ينتظر والدي من أجل خطأ معين ارتكبه خلال شبابه. هذا الخطأ كان مرتبطًا بالرجل المعروف بصفته العريف (روفوس سميث)، وحقيقة أن يجد الأخير طريقه إلى والدي كان بمثابة تحذير لنا بأن الوقت قد حان، وأن الخامس من أكتوبر - ذكرى الخطأ الرهيب - سيكون يوم التكفير.

أخبرتك عن مخاوفنا في رسالتي، وإذا لم أكن مخطئاً فقد أجرى والدي أيضًا بعض المحادثات معك حول الموضوع. عندما رأيته في صباح الأمس وهو يصطاد بالزي القديم الذي كان يحتفظ به دائمًا منذ أن ارتداه في الحرب الأفغانية، كنت على يقين من أن النهاية لم تصبح بعيدة وأن مخاوفنا ستتحقق.. في فترة ما بعد الظهر كان يبدو أكثر تألقاً مما رأيته لسنوات، وتحدث بحرية عن حياته في الهند وعن حوادث شبابه.

حوالي الساعة التاسعة مساءً، طلب منا الصعود إلى غرفنا الخاصة وحبسنا هناك -وهو إجراء احترازي كان يتخذه بشكل متكرر عندما يحل الظلام. لقد سعت روحه المسكينة دائمًا أن تبقينا بعيداً عن اللعنة التي سقطت على رأسه البائسة. قبل أن يبتعد عنا عانق والدتي و (غابرييل) بحنان، وتبعني بعد ذلك إلى غرفتي حيث أمسك يدي بحنان وأعطاني رزمة صغيرة من الأوراق موجهة إليك."

"إليَّ؟" سألت.

"سأعطيك تلك الأمانة بعد أن أخبرك قصتي، استحلفته للسماح لي بالجلوس معه ومشاركة أي خطر قد ينشأ، لكنه ناشدني بجدية ألا أقاوم ما سيحدث لعدم زيادة مشاكله بإحباط ترتيباته.

ونظرًا إلى أنني كنت أزعجه حقاً بسبب إصراري على البقاء معه، سمحت له أخيرًا بالذهاب وإغلاق الباب بالمفتاح من الخارج. سوف أؤنب نفسي دائمًا على عدم تصميمي للذهاب معه، ولكن ماذا يمكنك أن تفعل عندما يرفض والدك مساعدتك أو عونك؟ لا يمكنك أن تجبره على ذلك."

قالت أختي: "أنا متأكدة من أنك فعلت كل ما يمكنك فعله."

"تويت بالفعل عزيزتي (إستر)، ولكن -سامحَني الله- كان من الصعب معرفة ما هو الصواب.

غادرني وسمعت خُطاه تتجه أسفل الممر الطويل. كانت الساعة حوالي العاشرة أو بعد ذلك بقليل. لبعض الوقت قطعت الغرفة مجيئاً وذهاباً، وبعد ذلك حملت المصباح إلى رأس سريري واستلقيت دون أن أخلع ملابسي، وقرأت في كتاب القديس توما كيمبس، وصليت من قلبي أن تمر هذه الليلة بأمان علينا.

رحت أخيرًا في نوم مضطرب عندما انتفضت فجأة بسبب رنين عالٍ، اخترق أذني، فجلست في حيرة، ولكن كل شيء عاد صامتاً مرة أخرى. المصباح احترق قليلاً، وأظهرت لي ساعتي أنها كانت تقترب منتصف الليل.

تخبطت قدماي، وأنا أحاول إشعال الثقاب بقصد إضاءة الشموع، عندما اندلعت الصرخة الحادة الرنانة مرة أخرى بصوت عالٍ وواضح لدرجة أنها بدت وكأنها صادرة من غرفتي.

غرفتي في مقدمة المنزل، بينما توجد غرفتا أمي وأختي في الخلف؛ لذا فأنا الوحيد الذي تطل غرفته على الشارع.

عندما هرعت إلى النافذة، أزحت الستائر جانباً ونظرت إلى الخارج. تعلم أن هناك مساحة واسعة أمام المنزل مباشرة من الحصى. وفي وسط هذه المساحة الواضحة، وقف ثلاثة رجال ينظرون إلى المنزل، القمر يلمع عليهم كاملاً، يتلألأ على مقل عيونهم المقلوبة، ومن خلال ضوئه، رأيت أنهم كانوا ذوي وجوه وشعر أسود، من النوع بين السيخ والأفريدس، اثنان منهم كانا نحيفين، مع ملامح جمالية هادئة، في حين أن الثالث كان نبيلاً ورائعًا ذا شخصية نبيلة ولحية طويلة."

قلت في مفاجأة: "رام سينغ!"

صرخ (موردونت) في رعب: "هل تعرفهم؟ هل التقيت بهم؟"

أجبته: "أعرفهم، إنهم كهنة بوذيُّون، لكن استمر."

"وقفوا بجوار بعضهم بعضًا وهم يحركون أذرعهم صعوداً وهبوطًا، بينما تتحرك شفاههم كما لو كانت تكرر صلاة ما أو تعويذة.

فجأة توقفوا عن الإيماء، واندفعوا للمرة الثالثة في صرخة برية وحادة وغريبة أفاقتني من سباتي.

لن أنسى أبداً تلك الاستدعاءات الصاخبة المرعبة وهي تعلو ويتردد صداها في صمت الليل بصوتٍ قوي لا يزال يرن في أذني، وعندما انخفض صوتها تدريجياً، كان هناك صرير من المفاتيح تلاه صفعة باب مفتوح وقعقعة من القدمين.

من نافذتي رأيت والدي والعريف (روفوس سميث) يندفعان بشكل محموم إلى خارج المنزل وهما بلا قبعات وبشعر أشعث، مثل الرجال الذين يطيعون شيئاً خارقاً قوياً. لم يقم الغرباء الثلاثة بوضع أيديهم عليهم، ولكن كل الخمسة قطعوا الطريق بسرعة واختفوا بين الأشجار، أنا متأكد من أنه لم يتم استخدام أي قوة، أو قيد من أي نوع مرئي، ومع ذلك فأنا متأكد من أن والدي المسكين ورفيقه كانا

سجينين عاجزين كما رأيتهما يجريان بعيداً في الأغلال، كل هذا لم يستغرق وقتاً طويلاً كي يحدث منذ الاستدعاءات الأولى التي أزعجتني من نومي حتى آخر لمحة ألقيتها عليهما وهما ينطلقان بين جذوع الشجرة بالكاد لا تتعدى فعلياً أكثر من خمس دقائق.

كان الأمر مفاجئاً وغريباً جداً؛ أنه عندما انتهت تلك الحادثة ورحلا اعتقدت أن كل ما حدث كان كابوسًا رهيبًا أو وهمًا من محض الخيال، لولا أنني شعرت أن الأحداث كانت حقيقية جداً وحيوية للغاية لنَسَبْت كل ما رأيته إلى خيالي الواسع!

رميت بثقلي بالكامل على باب غرفة النوم على أمل كسر القفل، بقي صامداً لبعض الوقت، لكني أعدت الكرة مرارًا وتكرارًا حتى انكسر القفل ووجدت نفسي في الممر.

كان أول ما فكرت به التوجه لأمي؛ هرعت إلى غرفتها وأدرت المفتاح في بابها في اللحظة التي فعلت ذلك خرجت إلى الممر في ثوبها، ورفعت إصبعها محذرة.

قالت: "لا تحدث ضجيج؛ (غابرييل) نائمة.. هل تم استدعاؤهم؟

أجبت: "لقد حدث"

صرخت قائلة: "ستتم مشيئة الله! سيكون والدك المسكين أكثر سعادة في العالم الآخر مما كان عليه في أي وقت مضى. نشكر السماء أن (غابرييل) نائمة. لقد وضعت منومًا في قدح الكاكاو الخاص بها."

قلت: "ماذا أفعل؟ بصرف النظر إلى أين ذهبوا، كيف يمكنني مساعدته؟ لا يمكننا أن ندعه يذهب منا هكذا، أو ترك هؤلاء الرجال يفعلون ما يريدون معه. هل أركب إلى (ويجتاون) وأستدعي الشرطة؟"

قالت أمي بجدية:

"إياك أن تفعل شيئاً كهذا؛ لقد توسل إليَّ مرارًا وتكرارًا لتجنب ذلك، ابني، لن نرى والدك مرة أخرى. قد تتعجب من عيني الجافة، ولكن إذا علمت أنني أعرف السلام الذي سيجلبه له الموت فلن تجد في قلبك أي حزن تجاه ما حدث. كل السعي للبحث عنه عبثاً، ومع ذلك يجب أن يكون هناك بعض السعي. فليكن محدوداً قدر الإمكان. لا يمكننا أن نخدمه أفضل من تنفيذ رغباته."

صرخت:

"لكن كل دقيقة ثمينة. حتى الآن ربما يناشدنا أن ننقذه من براثن هؤلاء الشياطين ذوي البشرة الداكنة."

"لقد جننتني الفكرة لدرجة أنني هرعت من المنزل ونزلت إلى الطريق السريع، ولكن بمجرد أن وصلت إلى هناك لم يكن لدي أي إشارة إلى الاتجاه الذي اتجه إليه. كان المستنقع كله أمامي دون علامة على الحركة على امتداده الواسع. لقد استمعت ولكن لا صوت يكسر السكون التام في الليل. حينها، أصدقائي الأعزاء، بينما كنت واقفاً لا أدري إلى أي اتجاه أتجه، وجدت الرعب والمسؤولية قد

تملكاني بالكامل. وشعرت أنني أقاتل ضد قوى لا أعرف شيئاً عنها. كان كل شيء غريباً ومظلمًا ورهيباً.

اتجه كل تفكيري نحوك، والمساعدة التي قد أتلقاها منك سواء من نصيحة أو عونٍ؛ فستكون بمثابة منارة أمل بالنسبة لي. في برنكسوم، على الأقل يمكن أن ألقى التعاطف، وقبل كل شيءٍ، التوجيهات بشأن ما يجب أن أفعله؛ لأن ذهني مشتتٌ ولا يمكنني الوثوق في أحكامه بتقديري الشخصي. كانت والدتي راضية عن وحدتها وأختي نائمة، وليس هناك احتمال أن أتمكن من فعل أي شيءٍ حتى الفجر. في ظِلّ هذه الظروف، أي شيء طبيعي يجب أن أفعله أكثر من أن أطير إليك بأقصى سرعة تتحملها قدمي؟

لديك تفكير سليم، (جون) تحدَّث يا رجل، وأخبرني بما يجب أن أفعله (إستير) ماذا عليَّ أن أفعل؟ "

استدار من واحدٍ إلى الآخر منَّا بأيدٍ ممدودة متلهفة، وعينين متشوقتين.

أجبت:

"لا يمكنك أن تفعل شيئاً بينما يستمر الظلام، يجب أن نبلغ الأمر إلى شرطة ويجتاون، لكننا لا نحتاج إلى إرسال رسالتنا إليهم حتى نبدأ فعلياً في البحث ونمتثل للقانون لإجراء تحقيق خاص، كما ترغب أمك.

(جون فولارتون)، فوق التل، لديه كلب جيد مثل كلب الصيد. إذا وضعناه على دَرب الجنرال فسوف يقتفي أثره إذا اضطر إلى متابعته إلى طريق جون أوغروت."

"إنه لأَمر فظيع أن تنتظر بهدوءٍ هنا بينما قد يحتاج إلى مساعدتنا، أخشى أن مساعدتنا يمكن أن تفيده تحت أي ظرف من الظروف. هناك قوى هنا تتجاوز التدخُّل البشري، علاوةً على ذلك على ما يبدو لا يوجد لدينا بديلٌ؛ فليس لدينا أي فكرة ممكنة عن الاتجاه الذي اتخذوه، وبالنسبة لنا فإن التجول بلا هدف عند شاطئ في الظلام سيكون إهدار القوة التي يمكن استخدامها بشكل أكثر نفعًا في الصباح، سيكون ضوء النهار في الساعة الخامسة. خلال ساعة أو نحو ذلك يمكننا المشي فوق التل معًا ونحصل على كلب فولارتون."

موردونت يئن: "آخر ساعة! كل دقيقة تبدو وكأنها عمرٌ بطُولِه."

قلت:

"استلقِ على الأريكة واسترخ. لا يمكنك أن تخدم والدك أفضل من توفير قوتك للبحث عنه، لأننا قد نواجه ظروفاً مرهِقة أمامنا. لكَنك ذكرت رزمة كان الجنرال قد أوصى بإرسالها لي."

أجاب: "إنها هنا"، وأخرج طرداً مسطَّحًا صغيرًا من جيبه وسلمه إليّ قائلاً: "ستجد -بلا شك- أنه سيشرح كل الأشياء الغامضة."

تم تغليف العبوة في كل طرف بشمع أسود، تحمل ختم غريفين الطائر، الذي عرفت أنه شارة الجنرال المميزة. تم تأمينه أيضًا بواسطة شريط عريض، الذي قمت بقصه بسكين الجيب. ومن الخارج تمت كتابة بخط عريض: "السيد فوثيرجل ويست" وتحت: (يتم تسليمه إلى هذا السيد في حالة اختفاء أو وفاة اللواء هيذرستون الحاصل على وسام الملكة فيكتوريا، وكيل الحرب سابقًا بالجيش الهندي.)

لذا أخيرًا كنت على مقربة من معرفة السر المظلم الذي ألقى بظلاله على حياتنا. هنا بين يدي كنت أمسك الحل.

عزيزي (ويست).

كان عليَّ أن أرضي فضولك الطبيعي للغاية حول هذا الموضوع الذي أتيحت لنا الفرصة للتحدث عنه أكثر من مرة، لكنني امتنعت عن ذلك لمصلحتك الخاصة.

لقد عرفت من خلال التجربة الحزينة مدى التأثير المزعج والمثير للقلق وهو أن تنتظر إلى الأبد كارثة تقتنع بأنها يجب أن تصيبك، ولا يمكنك تجنبها أو التعجيل بها.

على الرغم من أن ذلك يؤثر عليَّ بشكل خاص، بصفتي الشخص الأكثر اهتمامًا، إلا أنني ما زلتُ أدرك أن التعاطف الطبيعي الذي لاحظته فيك، واحترامك لوالد (غابرييل)، سوف يجتمعان ليجعلاك غير سعيد إذا كنت تعرف اليأس، وبعد غموض المصير الذي يهددني. كنت أخشى أن أزعج عقلك، لذلك كنت صامتاً، على الرغم من اعتدادي بنفسي، لأن عزلتي لم تكن أقل المشاكل التي أثقلتني.

ومع ذلك، فقد أقنعتني العديد من العلامات، وأهمها وجود البوذيين على الساحل كما وصفتهم هذا الصباح، بأن الانتظار المرهِق قد انتهى في النهاية، وأن ساعة القصَاص قد حانت. لقد كان السماح لي بالعيش ما يقرب من أربعين عامًا بعد جريمتي شيئاً غريباً أكثر مما أستطيع أن أفهم، ولكن من المحتمل أن أولئك الذين كانوا يسيطرون على مَصيري يعرفون أن هذه الحياة كانت أعظم عقوبة بالنسبة لي.

لم يدخروا جهداً كي يذكروني في كل ساعة ليلاً أو نهارًا أبداً أنهم ميَّزوني كضحية لهم. كان جرسهم النجمي اللعين يدق لمدة عامين، يذكِّرني بوضوح أنه لا يوجد مكان على الأرض حيث يمكن أن أكون فيه في أمان.

أوه، السلام، سلام الخلاص المبارك!

ما قد يكون على الجانب الآخر من القبر، على الأقل ستخلص من هذا الصوت الرهيب ثلاث مرات.

لا حاجة لي الآن للتطرق لتلك لأعمال الرهيبة مرة أخرى، أو الحديث بالتفصيل بأي حال من الأحوال عن أحداث 5 أكتوبر 1841، والظروف المختلفة التي أدت إلى وفاة غولاب شاه.

لقد مزقت مجموعة من الأوراق من مجلتي القديمة، حيث ستجد فيها رواية واضحة لهذه المسألة، وقد قدَّم السير إدوارد إليوت، من المدفعية، روايةً مستقلةً لنجمة الهند قبل بضع سنوات - حيث ومع ذلك،

تم إلغاء الأسماء.

لدي سبب للاعتقاد بأن الكثير من الناس، حتى بين أولئك الذين يعرفون الهند جيداً، اعتقدوا أن السير إدوارد كان رومانسياً، وأنه وضعَ حوادثه من خياله. ستوضح لك الأوراق القليلة الباهتة التي أرسلتها لك أن هذا ليس هو الحال، وأن رجال العلوم لدينا يجب أن يعترفوا بالقوى الخارقة للطبيعة التي يمكن أن يستخدمها الإنسان، ولكنها غير معروفة للحضارة الأوروبية.

لا أرغب في النحيب أو العويل، ولكن لا يسعني إلا الشعور بأنني قد اتخذت إجراءً صعباً في هذا العالم. أعلم أن الله لا يقبل بقتل أيِّ إنسانٍ، خاصةً إذا كان المسن، بدم بارد. لكن أعصابي وطبيعتي كانتا دائمًا ناريتين وعنيدتين، وفي العملِ عندما يفور دمي أصبح غير مسئول عن أفعالي ولا أعرف ما أنا عليه. لا العريف ولا أنا كنا سنضع إصبعًا على غولاب شاه لو لم نرَ أن رجال القبائل يتجمعون خلفه. حسناً، إنها قصة قديمة الآن، ولا فائدة من مناقشتها. قد لا يكون لدى أي شخص بائس آخر نفس الحظ السيء!

لقد كتبت ملحقاً قصيرًا للبيانات الواردة في دفتر يومياتك لمعلوماتك ومعلومات أي شخص آخر قد يكون مهتمًا بالمسألة.

والآن، وداعًا! كن زوجًا جيداً لغابرييل، وإذا كانت أختك شجاعة بما يكفي للزواج في عائلة ممزقة بالشيطان مثل عائلتنا، فدعها بكل الوسائل تفعل ذلك. لقد تركت ما يكفي لإبقاء زوجتي المسكينة في راحة.

عندما تنضم إليّ مرة أخرى، أود أن يتم تقسيم التركة بالتساوي بين الأطفال.

إذا سمعت أنني رحلت، فلا تشفق، ولكن هنئ صديقك المنحوس..

جون بيرثيير هيذرستون.

رميت الرسالة جانباً والتقطت لفافة فولسكاب الزرقاء التي تحتوي على حل اللغز. كان كل شيء ممزقاً ومتضررًا عند الحافة الداخلية، مع وجود آثار من اللثة والخيط لا تزال ملتصقة به، من الواضح أنه تمزق من شدة ربط اللفافة.

الحبر المكتوب به قد تلاشى إلى حدٍّ ما، ولكن عبر رأس الصفحة الأولى تم نقشها بأحرف جريئة وواضحة، من الواضح أنها تعود في وقتٍ لاحق عن الباقي:

(يوميات الملازم هيذرستون في وادي ثول خلال خريف عام 1841)

ثم مكتوب تحته: (يحتوي هذا المقتطف على بعض الروايات عن أحداث الأسبوع الأول من أكتوبر من ذلك العام، بما في ذلك مناوشات وادي تيرادا وموت غولاب شاه.)

أمامي الآن القصة كاملة، وقمت بنسخها حرفياً. إذا كانت تحتوي على بعض المسائل التي ليس لها تأثيرٌ مباشر على القصة، فلا يسعني إلا أن أقول إنني أعتقد أنه من الأفضل نشر ما هو غير ذي

صلة، عوضًا عن القص والاقتطاع والتعرض لتهمة العبث بالبيان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

(من دفتر يوميات الجنرال هيذرستون)

(وادي ثول) 1 أكتوبر 1841م:

- وصلت الدفعة الخامسة من الكتيبة الثالثة والثلاثين من الجيش الملكي واتجهت إلى الجبهة، بعد أن تناولت وجبة صغيرة من البنغاليين!

- آخر الأخبار من الوطن أنه جرت محاولتان لاغتيال الملكة من قِبَل شبه مهووسين اسمهما (فرانسيس) و (بين)

- يعد الشتاء بأن يكون قاسياً؛ نزل الثلج على ارتفاع ألف قدم فوق قمم الجبال، لكن الممرات ستظل مفتوحة للأسابيع القادمة، وحتى لو انسدت، فقد أنشأنا العديد من المستودعات في البلد بحيث لن يواجه (بولوك) و (نوت) صعوبة في المؤن الخاصة بهما. لن يلقيا مصير جيش (إلفينستون) إن مأساته لن تُمحَى لقرن من الذاكرة!

- (إليوت) من المدفعية وأنا، مسؤولان عن تأمين الطريق لمسافة عشرين ميلاً أو أكثر، من مصب الوادي إلى هذا الجانب من الجسر الخشبي فوق (لوتار).

- (جودنوف) من المدفعية مسؤول عن الجانب الآخر، والعقيد (سيدني هربرت) من سلاح المهندسين، يشرف بشكل عام على كلا الفيلقين.

- قواتنا ليست كافية لأداء العمل المكلفين به؛ لدي سرية ونصف من الفوج الخاص بنا، وسرب من الصوار ([36]) الذين لا فائدة لهم على الإطلاق بين الجبال.

- لدى إليوت ثلاثة مدافع، لكن العديد من رجاله مصابون بالكوليرا، وأشك في أن لديه ما يكفي لخدمة أكثر من مدفعين.

- من ناحية أخرى، عادة ما يتم تزويد كل قافلة بحارس خاص بها، على الرغم من أنها غالباً ما تكون غير فعالة. هذه الوديان والشعاب التي تتفرع من الممر الرئيسي على قيد الحياة مع الافريديس والبشتون ([37])، اللصوص المتحمسين وكذلك المتعصبين الدينيين.

أتساءل لم لا ينقضون على بعض قوافلنا؟ يمكنهم نهبها والعودة إلى ثغورهم بالجبال قبل أن نتمكن من ملاحقاتهم، لا شيء سوى الخوف يقيدهم.

لو كان الأمر بيدي لقمت بتعليقهم عند فم كل واد كتحذير لأي متمرد، إنهم تجسيد للشيطان بصورتهم الغريبة؛ أنف الصقر، ممتلئ البدن، مع بدة من الشعر المتشابك، وابتسامة ساخرة شيطانية.

- لا توجد أخبار اليوم من الجبهة.

2 أكتوبر:

- يجب أن أطلب من (هيربرت) جدياً سرية أخرى على الأقل. أنا مقتنع بأنه سيتم قطع الاتصالات إذا تم شن أي هجوم خطير علينا.

- هذا الصباح أُرسلت إليَّ رسالتان عاجلتان من نقطتين مختلفتين تفصل بينهما مسافة تزيد عن ستة عشر ميلاً، لتقول أنه هناك علامات على نزول القبائل.

ذهب (إليوت) بمدفع واحد ومجموعة من الصوار، إلى الوادي الأبعد، بينما كنت مع المشاة أسرع إلى الآخر، لكننا وجدنا أنه كان إنذارًا كاذباً. لم أشاهد أيَّ علامات تدل على المقاتلين، وعلى الرغم من أننا استقبلنا بوابل من رصاصات الأيزيل([38]) على سبيل التحية، إلا أننا لم نتمكن من أسر أي من الأوغاد.

الويل لهم إذا سقطوا في يدي، لن يستغرقوا معي وقتاً طويلاً قبل أن أنفذ فيهم عدالة جلاسجو، قد لا تعني هذه الإنذارات المستمرة شيئاً أو أنها قد تكون مؤشرًا على أن رجال القبائل يتجمعون ولديهم خطة ما.

- لم يكن لدينا أخبار من الجبهة لبعض الوقت، لكن قافلة من الجرحى أتت اليوم بمعلومات استخبارية أن (نوت) قد استولى على غروزني. آمل أن يقوم باستجواب أي من الأوغاد السود الذين سقطوا في يديه.

- لا أخبار من (بولوك).

- جاءت مجموعة مدفعية الفيل من البنجاب، وتبدو في حالة جيدة جداً.

- العديد من الجنود تجاوزوا فترة النقاهة وصاروا على استعداد للعودة والانضمام إلى أفواجهم.

- لم أتعرف على أيٍّ منهم باستثناء قائد سلاح الفرسان، وبعض الشباب من (بلاكسيلي)([39])، الذي كان زميلاً لي في (شارتر هاوس)([40])، ولم أرَهْ منذ ذلك الحين.

- مارست الملاكمة ودخنت سيجارًا في الهواء الطلق حتى الساعة الحادية عشرة.

- رسائل اليوم من (ويلز وشركاه). حول فاتورتهم الصغيرة المرسلة من دلهي.

يقول (ويلز) فيها إنه بما أن طلباته المكتوبة ذهبَتْ سُدى، فعليه التواصل معي شخصياً؛ إذا حاول الوصول إليَّ الآن فسيكون بالتأكيد الأكثر جرأة ومثابرة بين جميع الخياطين!

3 أكتوبر:

أخبار مجيدة من الجبهة اليوم..

- اخترق (باركلي) قائد كتيبة فرسان (مدراس) - الجبهة مع وعد بإرسال معونات لنا.

- دخل (بولوك) إلى كابول منتصرًا في السادس عشر من الشهر الماضي، والأفضل من ذلك، أنقذ شكسبير السيدة سيل ([41]) وجلبها إلى المعسكر البريطاني، جنبًا إلى جنب مع الرهائن الآخرين.

هذا يجب أن ينهي كل الأعمال المتمردة والاستيلاء على المدينة. آمل أن لا يكون (بولوك) مرهف الحساسية أو أن يصاب بالحنين المفرط للوطن.

لا بُدَّ أن تحال المدن إلى رماد وتستبدل الحقول بالملح، وقبل كل شيءٍ، يجب أن تصل تلك الأخبار إلى دار المندوب السامي والقصر الإنجليزي، كي يعلم بيرنز، وماكنتجتن ([42])، والعديد من زملائهم البواسل أن مواطنيه يمكنهم الانتقام إذا لم يتمكنوا من إنقاذ أنفسهم!

من الصعب عندما يكتسبون المجد والخبرة أن يعلقوا في هذا الوادي البائس. لقد خرجت منه تمامًا، باستثناء بعض المناوشات الصغيرة.

ومع ذلك، ربما يقدمون بعض الخدمات.

حضر الجيمدار ([43]) اليوم بصحبة رجاله، ويقول إن القبائل تتجمع في وادي تيرادا، على بُعد عشرة أميال إلى الشمال منا وتعتزم مهاجمة القافلة التالية. لا يمكننا الاعتماد على معلومات من هذا النوع، ولكن قد يثبت وجود بعض الحقيقة فيها. اقترحت إطلاق النار على هذا الواشي؛ لمنعه من لعب دور العميل المزدوج والإبلاغ عن ترتيباتنا.

ولكن اعترض (إليوت)!

إذا كنت تشن حربًا، فلا يجب عليك أن تضيع أي فرصة، أكره أنصاف الحلول بشدة، يبدو أن بني إسرائيل هم الوحيدون الذين خاضوا الحرب بمنطقية حتى نهايتها ([44])، باستثناء كروميل في آيرلندا!

قدم (إليوت) حلًّا وسطًا أخيرًا يتم بموجبه احتجاز الرجل كسجين وإعدامه إذا ثبت أن معلوماته خاطئة. آمل فقط أن نحصل على فرصة عادلة لإظهار ما يمكننا القيام به.

- لا شك في أن هؤلاء الزملاء في المقدمة سيتم تكريمهم بالشكل اللائق ويحصلون على أعلى الرتب، في حين أننا الذين نتحمل معظم المسؤولية والقلق، سيتم تجاوزنا كليًا.

- أصيب (إليوت) بالداحس ([45]).

- القافلة الأخيرة تركت لنا علب كثيرة من الصلصة، ونسوا ترك أي شيء لنأكله معها، سلمنا العلب إلى الصوار، الذين يشربونها وكأنها خمر لذيذة.

- نسمع أن قافلة كبيرة أخرى يمكن توقُّع مجيئها من السهول على مدار يوم أو يومين.

4 أكتوبر:

- أعتقد أن الجيمدار كان على حق هذه المرة؛ لقد وصلنا صباح اليوم اثنان من جواسيسنا بنفس المعلومة عن التجمع في حي تيرادا. ذلك الوغد العجوز (زيمان) يقود ذلك التجمع، وأنا الذي أوصيت الحكومة بتزويده بمنظار مقرَّب كمقابل لحياده!

لن يعش (زيمان) حتى يقوم برد ذلك المنظار، إذا نجحت في القبض عليه.

نتوقع أن تقوم القافلة صباح الغد، ولا نحتاج إلى انتظار الهجوم حتى يأتي؛ لأن هؤلاء الرجال يقاتلون من أجل النهب وليس من أجل المجد، وعلى الرغم من ذلك -وحتى أكون منصفاً- لديهم جرأة كبيرة عندما يبدأون في القتال.

-وضعت خطة محكمة، ودعمها (إليوت) من كل قلبه.

فليحالفنا الحظ! إذا استطعنا تنفيذ هذه الخطة، فستكون حيلة رائعة لم أسمع عنها من قبل!

نيتنا هي أن ننشر خبر أننا ذاهبون إلى الوادي لمقابلة القافلة وإغلاق مدخل الممر الذي نتوقع منه الهجوم.

جيد جداً.. سنقوم بعد ذلك بمسيرة ليلية ونصل إلى معسكرهم، وهناك سأخفي مائتي رجل في العربات وأسافر مع القافلة مرة أخرى.

أصدقاؤنا الهنود، بعد أن يسمعوا بأننا ننوي الاتجاه جنوباً، ثم يرون القافلة تتجه شمالاً بدون حراستنا، فسوف ينقضون عليها بشكل طبيعي ظناً بأننا على بُعدِ عشرين ميلاً.

سنقوم بتلقينهم درسًا قاسيًا سيتذكرونه دومًا قبل التفكير مرة أخرى في الهجوم على قطارات الإمداد والتموين الخاصة بصاحبة الجلالة البريطانية.. أنا أنتظر على أحرّ من الجمر لتنفيذ هذه الخطة!

قام (إليوت) بإخفاء مدفعين من أسلحته بشكل عبقري لدرجة أنهما لم يظهرا تحت تل الفاكهة والخضر، رؤية رجال المدفعية في القافلة قد يثير الشك؛ ولذلك سيكون رجال المدفعية مختبئون في العربات بجوار المدافع وجميعهم جاهزون لإطلاق النار وسيكون المشاة في الأمام والخلف.

أخبرنا موظفي (السيبويس)([46]) السريين، بالخطة المزيفة التي لا ننوي اعتمادها.

ملحوظة: إذا كنت ترغب في أن تنشر سرًا على مقاطعة بأكملها، فما عليك سوى أن تهمس به تحت تعهد السرية لخادمك السري المطيع!

8.45 مساءً -بدأت القافلة في التحرك. نرجو أن يحالفنا الحظ!

5 أكتوبر:

السابعة مساءً: انتصار عظيم! يعزو فضله لي و (لوريل إليوت)! من يستطيع أن يقارننا بقاتل حشرات؟

لقد عدت للتو، متعباً ومرهقاً، ملطخًا بالدم والغبار، لكنني جلست قبل أن أغتسل أو أغير ملابسي لأدوِّن ما حدث في السجل السري الخاص بي الذي لم يرَه أحدٌ من قبل. سأصف ما حدثَ بالتفصيل على أنه تحضير للتقرير الرسمي الذي سيتم كتابته عندما يعود (إليوت).

- اعتاد (بيلي داوسون) أن يقول إنه هناك ثلاث درجات للمقارنة بين المراوغة والكذب والتقرير الرسمي. لا يمكننا المبالغة في وصف نجاحنا، لأنه من المستحيل إضافة أي شيء إليه.

انطلقنا حسب الخطة وذهبنا إلى المخيم الواقع بالقرب من رأس الوادي، كان هناك سريتان ضعيفتان من المجموعة 54، وبدون شك أخذتا احتياطاتهما للدفاع عن المخيم، ولكن أي اندفاع غير متوقع من رجال القبائل أمر صعب للغاية أن تقف ضده.

مع تعزيزاتنا وعلى حذرنا قد نشتبك مع الأوغاد!

كان (تشامبرلين)- قائد السريتين- زميلاً شابًا جيداً. سرعان ما جعلناه يتفهم الموقف، وصرنا جاهزين عند أول خيط من الفجر على الرغم من أن العربات كانت ممتلئة لدرجة أننا اضطررنا لترك عدة أطنان من الأعلاف من أجل إفساح المجال أمام السيبويس خاصتي ورجال المدفعية.

- حوالي الساعة الخامسة فكرنا في استخدام الأفارقة، وبحلول الساعة السادسة، كنا نسير في طريقنا بصورة جيدة، وظهرنا كقافلة عاجزة عن صد أي هجوم يقع عليها.

استطعت أن أرى أنه لن يكون هناك إنذار كاذب هذه المرة، وأن القبائل كانت تسعى بالفعل للتحضير للهجوم.

من خلال ملاحظتي وأنا وراء الأغطية القماشية لإحدى العربات، استطعت أن أميز رؤوسًا ترتدي عمامات ظهرت لتلقي نظرة علينا من بين الجبال، وكشافة متفرقة تسرع شمالاً لتنقل أخبار اقترابنا.

- لم يمر وقتٌ طويلٌ حتى وصلنا إلى بداية ممر تيرادا، وهي مُظلِمة قاتمة تحدها المنحدرات العملاقة، ثم بدأ الأفريديس في الظهور بقوة؛ لقد نصبوا كميناً بذكاءٍ شديدٍ لدرجة أننا لم نلحظ تواجدهم، ربما دخلنا بالفعل في الفخ الذي نصبوه لنا!

توقفت القافلة، التي فتح عليها الحراس- بعد أن رأوا أنهم شوهدوا- نيراناً ثقيلة، ولكن غير موجهة نحوهم.

كنت قد طلبت من (تشامبرلين) التخلص من رجاله بترتيب المناوشات، وإعطاءهم التوجيهات للتراجع ببطءٍ بالعربات حتى نقوم بسحب الأفريديس، ونجحت الحيلة بامتياز.

مع انسحاب المعاطف الحمراء بثبات، وفَّروا لنا غطاءً خلفيًّا للحماية وتابعهم العدو بصراخ البهجة، وهم ينتقلون من صخرة إلى صخرة ويلوحون ببنادقهم في الهواء ويعوون مثل مجموعة من الشياطين.

مع وجوههم السوداء، الملتوية، الساخرة، وإيماءاتهم الشرسة، وملابسهم الرثة، كانوا مثالاً لأي رسام يرغب في تصوير ما قاله (ميلتون) في قصيدة الفردوس المفقود عن جيش الملعونين.

من كل جانب ضغطوا علينا حتى رأوا كما كانوا يعتقدون- أنهم أحرزوا النصر المبين، فتركوا أماكنهم فوق الجبال وجاءوا مندفعين إلى الأسفل في حشد غاضب وعويل عالٍ، مع راية خضراء مرفوعة في مقدمة الحشد.

الآن كانت فرصتنا، وقد استخدمناها بشكل عظيم.

مددنا الأذرع وشققنا العربات، أطلقنا المدافع والبنادق، كل طلقة قتلت العديد من الغوغاء القريبين منا. فرَّ منهم اثنان أو ثلاثة كالأرانب وثبت الباقي للحظة، وبعد ذلك، مع تحفيز رؤسائهم على القتال، عادوا مرة أخرى في اندفاع رائع.

ومع ذلك، كان من غير المجدي بالنسبة لهؤلاء الرجال من الغوغاء محاولة مواجهة مثل هذه النيران الموجهة جيداً. تم قتل الزعماء، والآخرون بعد التردد لبضع لحظات استداروا واتجهوا للصخور.

لقد حان دورنا الآن لتولي الهجوم. كانت البنادق جاهزة وتُطلِق نيرانها سريعًا، في حين تقدمت قوات المشاة الصغيرة الخاصة بنا وأطلقت النار وطعنت كل من وقف أمامها.

لم أكن أعلم أبداً أن تيار المعركة يتحول بسرعة وحزم. أصبح التراجع البطيء فرارًا، والفرار هزيمة منكرة، حتى لم يتبقَّ شيءٌ من رجال القبائل باستثناء شرذمة متناثرة تفر سريعًا إلى مكانها الأصلي من أجل المأوى والحماية.

لم أكن أميل على الإطلاق إلى تركهم بهذه السهولة بعد أن صاروا في متناول يدي. على العكس من ذلك، عقدت العزم على تلقينهم درسًا قاسياً بحيث يكون الزي القرمزي للجيش البريطاني في المستقبل تصريحًا بالمرور في حدِّ ذاته.

لقد تابعنا حثيثاً مسار الهاربين ودخلنا ممر تيرادا على أعتابهم. بعد أن فصلت كلاً من (تشامبرلين) و (إليوت)، كل فرد منهما مع سرية على كلا الجانبين لحماية جناحيّ، ضغطت بالسيبويس وحفنة من رجال المدفعية، مما لم يمنح العدو الوقت للتجمع أو لالتقاط الأنفاس.

ومع ذلك، فقد أعاقنا للغاية زينا الأوروبي المتصلب الثقيل عن رغبتنا في تسلُّق الجبال وبدا لنا أننا لن نستطيع اللحاق بأيٍّ من متسلقي الجبال لولا وقوع حادث حالفنا فيه الحظ.

هناك واد صغير يفتح على الممر الرئيسي، وفي عجلة من أمرهم وارتباكهم هرع بعض الهاربين إلى ذلك الوادي. رأيت ستين أو سبعين منهم ينحرفون، لكن كان يجب أن أتعقبهم واستمررت في السعي وراءهم، لم يأتِ أحد الكشافة ليخبرني أن الوادي كان ينتهي بطريق مسدود، وأن الأفريديس الذين صعدوا لم يكن لديهم وسيلة ممكنة للخروج مرة أخرى إلا من خلال شقّ طريقهم عبر صفوفنا.

كانت هنا فرصة لبث الرعب بين القبائل.

تركت (تشامبرلين) و (إليوت) لمواصلة ملاحقة التشكيلات الرئيسية، وقدت مجموعة سيبويس في الطريق الضيق ومضينا ببطءٍ في ترتيب ممتد، وقمنا بالانتشار على الأرض بأكملها من الجرف إلى الجرف. لا يوجد كائن الآن يستطيع أن يمر بيننا وسيتم القبض على المتمردين مثل الفئران في فخ.

كان المنحدر الذي وجدنا فيه أنفسنا هو الأكثر كآبة وروعة الذي رأيته على الإطلاق؛ على جانبي المنحدرات الصخرية العارية التي ارتفعت لألف قدم أو أكثر، متقاربة من بعضها البعض لتترك شقاً ضيقاً جداً من ضوء النهار فوقنا، والذي تم تقليصهُ أيضًا من خلال حواف أوراق النخيل ونباتات الصبار المنتشرة على كل حافة.

لم تكن المنحدرات على بُعدِ أكثر من مائتي ياردة عند المدخل، ولكن مع تقدمنا صار أضيق شيئاً فشيئاً، حتى إن السَّرية سارت جنبًا إلى جنب.

ساد نوعٌ من الشفق في هذا الوادي الغريب، الضوء الخافت جعل صخور البازلت العظيمة غامضة ورائعة.. لم يكن هناك طريق ممهد وكانت الأرض غير مستوية، لكنني سحبت زناد مسدسي بسرعة محذرًا رفاقي كي يضعوا أصابعهم على الزناد؛ لأنني استطعت أن أرى أننا نقترب من النقطة التي سيشكل فيها المنحدران زاوية حادة مع كل منهما آخر.

أخيرًا رأينا نهاية الطريق؛ تم تكديس كومة كبيرة من الصخور في نهاية الممر، ومن بينها كان هؤلاء الهاربون يحاولون التسلل وهم مشوشون تمامًا، وغير قادرين على المقاومة. لقد كانوا عديمي الفائدة كسجناء، وكان من المستحيل السماح لهم بالهروب؛ لذلك لم يكن هناك خيار سوى القضاء عليهم سريعًا.

عندما هممت أن ألوِّح بسَيفي وأعطي إشارة الهجوم لرجالي، تمت مقاطعتنا بأسلوبٍ أكثر دراماتيكية من الروايات التي رأيتُها لمرة أو مرتين على مسرح دروري لين([47])، ولكن لم يسبق أن رأيتها في الحياة الحقيقية!

على جانب الجرف، بالقرب من كومة الحجارة حيث كان رجال القبائل يتخذون موقفهم الأخير، كان هناك كهف أقرب إلى مخبأ للحيوانات البرية منه لسكن الإنسان.

من هذا الكهف المظلم ظهر فجأة رجل عجوز، كان عجوزًا للغاية لدرجة أن جميع المحاربين القدامى الآخرين الذين رأيتهم كانوا دجاجًا مقارنة به؛ كان شعره ولحيته باللون الأبيض مثل الثلج، وتعدى كل منهما أكثر من منتصف خصره. كان وجهه مجعداً مليئاً بالخطوط البنية مثل خشب الأبنوس، كان وجهًا يجمع بين القرد والمومياء، كان نحيفاً وهزيلاً وأطرافه ذابلة بالكاد تتحرك في بطءٍ لتعطي مؤشرًا عن وجود بعض الحياة فيه، أما عيناه فقد لمعتا وتألقتا من الإثارة، مثل ماستين وُضِعتَا في إطار من خشب الماهوجني.

خرج هذا الرجل سريعًا من الكهف، ووضع نفسه بين الهاربين ورجالي، ثم أمرنا بالعودة إلى الوراء بإشارة غاضبة من يده مثل الإمبراطور الذي يأمر عبيده!

صرخ بصوتٍ كالرعد: "رجال الدم!" يتحدث الإنجليزية بشكل ممتاز أيضًا" هذا مكان للصلاة والتأمل، وليس للقتل وللكذب، تراجع لئلا يقع عليك غضب الآلهة."

صرخت: "تنحّ جانبًا أيها العجوز، سوف تصاب بالأذى إذا لم تبتعد عن الطريق."

استطعت أن أرى أن الهاربين بدأوا يتشجعون، وأن بعض السيبويس أحجموا بعض الشيء كما لو أنهم يخشون هذا العدو الجديد. من الواضح أنني يجب أن أتصرف على الفور إذا كنت أرغب في إكمال نجاحنا.

اندفعت إلى الأمام على رأس جنود المدفعية التي حاولَتْ الإمساك بي.

هرع الرجل العجوز إلينا بذراعيه وكأنه يوقفنا، ولكن لم يكن أمامنا الكثير من الوقت؛ لذا اخترقت جسده بواسطة سيفي، في نفس اللحظة التي ضربه أحد رجال المدفعية بالكاربينة ([48]) على رأسه.

سقط على الفور، وأقام رجال القبائل المتمردون على مرأى من سقوطه عواء الرعب والذعر.

عاد رجالي مرة أخرى إلى الكرّ في اللحظة التي تم التخلص منه، ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لإكمال فوزنا.

بالكاد تمكَّن رجلٌ واحدٌ فقط من العَدْو من النجاة وهو على قيد الحياة.

ما الذي يمكن أن يفعله هانيبال أو قيصر أكثر؟ لقد كانت خسائرنا في المعركة بأكملها دون أهمية؛ قتل ثلاثة وجرح حوالي خمسة عشر. حصلت على رايتهم، وهي عبارة عن قطعة خضراء من القماش منقوش عليه جملة من القرآن.

نظرت بعد نهاية المعركة إلى جثة الرجل العجوز، لكن جسده اختفى!

كيف أو أين ليس لدي أي فكرة. لقد كان دمه ينزف من رأسه!

كان ليبقى على قيد الحياة الآن لو لم يحاول إعاقتنا، كما يقول الشرطيون في وطني:

"أعاق ضابط عن تنفيذ واجبه."

أخبرني الكشافة أن اسمه كان غولاب شاه، وأنه كان من أعلى وأقدس البوذيين، وكان يتمتع بشهرة كبيرة في المنطقة باعتباره نبيًا وصانعًا للمعجزات.. ومن هنا كانت الجلبة التي حدثت عندما تم قتله.

أخبروني أنه كان يعيش في هذا الكهف بالذات عندما مرَّ (تيمور لنك) بهذا الطريق في عام 1399م، مع ترهات عديدة من هذا النوع.

دخلت إلى الكهف متعجبًا كيف يمكن لأي إنسان أن يعيش فيه أسبوعًا على الأكثر؛ كان لا يزيد ارتفاعه عن أربعة أقدام، وكان كهفًا رطبًا وقاتلاً.

مقعد خشبي وطاولة خشنة كانا الأثاث الوحيد، مع الكثير من مخطوطات الرق مكتوبة بالهيروغليفية.

حسناً، لقد ذهب إلى حيث سيتعلم أن إنجيل السلام وحسن النية يفوق كل تقاليده الوثنية، السلام على روحه.

-لم يأسر (إليوت) و(تشامبرلين) الزعيم الرئيسي -كنت أعرف أنهما لن يفعلا -لذا فإن الشرف اليوم يعزو إليّ بمفردي. يجب أن أخطط لذلك، وعلى أي حال، من يدري؟ ربما يذكرني البعض في الجريدة...يا لها من ضربة حظ!

أعتقد أن (زيمان) يستحق منظاره المقرَّب الآن بعد كل ما حدث، وعامة فقد استعدته منه!

يجب أن أتناول شيئاً الآن، لأنني أتضور جوعًا.

المجد شيء ممتاز، لكن لا يمكنك العيش عليه.

6 أكتوبر 11 صباحًا

اسمحوا لي أن أحاول أن أبدأ بهدوء ودقة قدر المستطاع سرد ما حدث الليلة الماضية. لم أكن أبداً حالمًا أو متوهمًا؛ لذلك يمكنني الاعتماد على حواسي الخاصة، على الرغم من أنني ملزم بأن أقول إنه إذا أخبرني أي زميل آخر نفس الشيء كان يجب أن أشك فيه. ربما كنت أشك في أنني خدعت في ذلك الوقت لو لم أسمع الجرس منذ ذلك الحين.

ومع ذلك، يجب أن أروي ما حدث.

كان (إليوت) في خيمتي يدخِّن معي كيروت([49]) هادئ حتى الساعة العاشرة تقريباً، ثم مشيت حول المنطقة في جولة تفقدية مع جاميدار، وبعد أن رأيت أن كل شيء على ما يرام، عدت إلى خيمتي قبل الحادية عشرة بقليل.

كنت أستعد للنوم لأنني كنت متعباً للغاية بعد عمل اليوم، عندما سمعت ضجيجًا طفيفاً، وعندما نظرت حولي، رأيت رجلاً يرتدي زياً آسيوياً يقف عند مدخل خيمتي. لقد كان ثابتاً بلا حراك عندما رأيته، وكان مثبتاً عينيه عليَّ بتعبير مهيب وصارم.

كان أول ما فكرت فيه هو أن ذلك الرجل غازٍ أو متعصب أفغاني جاء بنية طعني، ومع هذه الفكرة في ذهني حاولت النهوض من الأريكة والدفاع عن نفسي، لكنني كنت أفتقر إلى القوة اللازمة منعتني قوة مهيمنة وسلبتني الطاقة الكافية. لو رأيت الخنجر ينزل على صدري ما كنت لأبذل جهداً لتفاديه!

أفترض أن طائرًا عندما يكون تحت تأثير ثعبان يشعر بما شعرت به في حضور هذا الغريب ذي الوجه الداكن. كان ذهني منتبهًا بما فيه الكفاية، لكن جسدي كان مخدَّرًا كما لو كنت نائمًا.

أغمضت عيني وفتحتهما مرة ومرتين، وحاولت إقناع نفسي بأن الأمر برمته وهمٌ، ولكن في كل مرة أفتحهما كان الرجل لا يزال موجوداً وينظر إليَّ بنفْس النظرة الثابتة.

أصبح الصمت لا يطاق. شعرت أنه يجب أن أتغلب على لساني حتى أخاطبه. أنا لست رجلاً عصبياً، ولم أكن أعلم من قبل ما يعني فيرجيل عندما كتب "لقد قتلني بصمته".

أخيرًا، تمكنت من التفوه ببعض الكلمات وسألت الدخيل من هو وماذا يريد.

أجاب متحدثاً ببطءٍ بطريقة مخيفة:

"الملازم (هيذرستون)، لقد ارتكبت اليوم أبشع جريمة وأكبر جريمة يمكن للإنسان القيام بها؛ لقد قتلت المبارك والمبجل ثلاث مرات، بارع القوس من الدرجة الأولى، الأخ الأكبر الذي داس على الطريق الأعلى لسنوات أكثر من عمرك منذ أشهر، لقد قتلته في وقتٍ وصلت فيه أعماله إلى ذروتها، وكان على وشك الوصول إلى أقصى درجات المعرفة التي كانت ستجعل الإنسان أقرب إلى خالقه.

كل هذا ما فعلته بدون عذر، ودون استفزاز منه، في الوقت الذي كان يدافع فيه عن العجز والعذاب. استمع لي الآن -جون هيذرستون- عندما تمت متابعة العلوم الغامضة لأول مرة منذ عدة آلاف من السنين، اكتشف العلماء أن مدة الوجود البشري القصيرة كانت محدودةً للغاية؛ بحيث لا يسمح للرجل بالوصول إلى أعلى طبقات الحياة الداخلية. وجه المستعلمون في تلك الأيام وبالتالي، فإن الطاقات في المقام الأول تطيل أيامهم الخاصة حتى يكون لديهم مجالٌ أكبر لتحسين معرفتهم، ومن خلال علمهم بالقوانين السِّريَّة للطبيعة، تم تمكينهم من تحصين أجسادهم ضد المرض والشيخوخة. بقوا فقط لحماية أنفسهم من هجمات الرجال الأشرار والعنيفين الذين هم على استعداد دائم لتدمير ما هو أكثر حكمة ونبلاً من أنفسهم. لم تكن هناك وسيلة مباشرة يمكن من خلالها تنفيذ هذه الحماية، ولكن تم تحقيقها إلى حدٍّ ما من خلال ترتيب القوى الخفية بطريقة تجعل الانتقام الرهيب الذي لا مفر منه ينتظر الجاني.

لقد تم تحديدها بشكلٍ لا رجعة فيه من قِبَل القواعد التي لا يمكن كسرها، أن أي شخص يسفك دم أخٍ حصل على درجة معينة من القداسة فهو هالكٌ. هذه القوانين موجودة حتى يومنا هذا، ولقد وضعتً نفسك تحت رحمتها. الملك أو الإمبراطور سيكون عاجزًا عن دفع تلك القوى عنك. ما هو الأمل إذاً بالنسبة لك؟

في السابق، نفذت هذه القوانين على الفور لدرجة أن القاتل مات مع ضحيته، وحُكِمَ بعد ذلك بأن هذا الانتقام الفوري حال دون أن يدرك الجاني فداحة جريمته، ولذلك رُئي أنه في هذه الحالات ينبغي ترك العقوبة في أيدي الشيلاس، أو تلاميذ المعلمين المباشرين، مع سلطة تمديدها أو تقصيرها بإرادتهم، أو فرضها إما في ذلك الوقت أو في أي الذكرى السنوية لليوم الذي ارتكبت فيه الجريمة.

لماذا يجب أن يأتي العقاب في تلك الأيام فقط لا يهمك أن تعرف، يكفي أن تعرف أنك قاتل غولاب شاه المبارك، وأنني واحد من أكبر ثلاثة شيلاته المكلفون بالثأر لموته.

لا توجد مسألة شخصية بيننا؛ وسط دراستنا ليس لدينا وقت فراغ أو ميل للشؤون الشخصية. إنه قانون ثابت، ومن المستحيل بالنسبة لنا أن نتناساه كما هو الحال بالنسبة لك للهروب منه.

عاجلاً أم آجلاً في وقتٍ لاحقٍ سنأتي إليك ونطالب بحياتك في التكفير عن تلك الحياة التي أخذتها.

ونفس المصير سيواجهه الجندي البائس- سميث- الذي على الرغم من أنه أقل ذنباً منك، ولكنه تكبَّد نفَس العقوبة برفع يده اللعينة ضد المختار من بوذا. إذا كانت حياتك طويلة، فليس عليك سوى استغلال الوقت للتوبة عن آثامك والشعور بالقوة الكاملة للعقاب الخاص بك، ولكي لا تجرؤ على إخراجها من عقلك ونسيانها، جرسنا - جرسنا النجمي، واستخدامه واحد من أسرارنا الغامضة - يجب أن نذكرك أبداً بما كان وما يجب أن يكون. ستسمعه نهارًا وستسمعه ليلاً، وستكون علامة لك تفعل ما قد تفعله وتذهب إلى حيث تريد، لا يمكنك أبداً التخلص من تلاميذ غولاب شاه.

لن تراني أبداً بعد ذلك، أيها الرجيم، حتى اليوم الذي نأتي فيه من أجلك.. عش في خوف وهذا أسوأ من الموت."

مع تلويحة التهديد من يده اختفى الرجل وانجرف من خيمتي نحو الظلام. في اللحظة التي اختفى فيها من أمام عيني، تعافيت من خمولي؛ فوقفت على قدمي، وهرعت لأفتح باب الخيمة ونظرت. كان خفير من السيبويس يقف ورأسه مائلة على صدره على بعد خطوات قليلة.

قلت بالهندية: "أيها الكلب! ماذا تقصد بالسماح للناس بإزعاجي بهذه الطريقة؟"

حدق الرجل في ذهولٍ وسألَ: "هل أزعج أحد الصاحب؟"

"هذه اللحظة - الآن. لا بُدَّ أنك رأيته يخرج من خيمتي."

أجاب الرجل، باحترام ولكن بحزمٍ: "بالتأكيد إن الصاحب مخطئ، لقد كنت هنا لمدة ساعة، ولم يمر أحدٌ أمام الخيمة."

كنت محتارًا وقلقاً، جلست على طرف الأريكة أتساءل عمَّا إذا كان الأمر برمته مجرد وهمٍ نتجَ عن الإثارة العصبية لمناوشاتنا، عندما أفقت على أعجوبة جديدة.

فوق رأسي، بدا فجأة صوتاً حاداً قوياً، مثل الصوت الذي ينتج عن الزجاج الفارغ عند حكه بواسطة الظفر، فقط أعلى وأكثر وضوحًا.

نظرت إلى الأعلى، ولكن لم يكن هناك شيء يمكن رؤيته. قمتُ بفحص الجزء الداخلي للخيمة بالكامل بعناية، ولكن دون اكتشاف أي سببٍ للصوت الغريب. أخيرًا، أرهقَني البحث والتعب، فتخليت عن محاولة كشف هذا الغموض، ورميت نفسي على الأريكة وسرعان ما نمت.

عندما استيقظت هذا الصباح، كنتُ أَميل إلى إسناد كل ما حدث في الليلة السابقة إلى الخيال، ولكن سرعان ما أزعجتني الفكرة، لأنني لم أتوقع أن يتكرر نفس الصوت الغريب في أذني بصوتٍ عالٍ كما كان من قبل. ما هو؟ أو من أين يأتي؟ لا أستطيع أن أعرف. لم أسمع من قبل مثيلاً له.

هل يمكن أن تحتوي تهديدات الرجل على شيءٍ ما، وهل هذا هو جرس الإنذار الذي تحدث عنه؟؟ مستحيل بكل تأكيد! ومع ذلك، كان أسلوبه مثيرًا للإعجاب بشكلٍ لا يوصف.

لقد حاولت تحديد ما قاله بأكبر قدر ممكن من الدقة، لكنني أخشى أن أغفل كلمة ما. ما هي نهاية هذه القضية الغريبة؟ يجب أن أذهب لدروس الدين والتزود من المياه المقدسة. لن أتفوه بكلمة لتشامبرلين أو (إليوت)

يقولون لي إنني أبدو مثل شبح هذا الصباح.

مساءً - تمكنت من مقارنة الملاحظات مع العريف (روفوس سميث) من المدفعية، الذي دق رأس العجوز بكعب بندقيته، وكانت تجربته هي نفسها تجربتي. لقد سمع الصوت أيضًا. ما معنى كل هذا؟ عقلي في دوامة.

10 أكتوبر (بعد أربعة أيام):

فلتحفظنا يا الله!

هذا البيان المقتضب الأخير أنهى الدفتر به..

بدا لي أنه بعد أربعة أيام من الصمت التام، أستطيع أن أخبر قصة أكثر وضوحًا لأعصابي المهتزة والروح المكسورة أكثر من أي سردٍ تفصيليٍّ. تمت إضافته إلى الدفتر كبيان تكميلي أضافه الجنرال مؤخرًا.

قال: "منذ ذلك اليوم وحتى الوقت الحالي، لم أحصل على ليلة أو يوم خالٍ من ذلك الصوت الرهيب. لم يجلب لي الزمن أي راحة، بل على العكس عندما تمر السنوات تقل قوتي الجسدية وتصبح أعصابي أقل قدرة على تحمل الإجهاد المستمر، أنا رجل ضعيف في العقل والجسد. أنا أعيش في حالة توتر، أذناي مجهدتان دائمًا بسبب الصوت البغيض، خائف من التحدث مع زملائي خوفاً من التصريح بحالتي الرهيبة لهم، دون أي راحة أو أمل في الراحة سوى في القبر.

يجب أن أكون على استعداد للموت مع اقتراب كل يوم 5 أكتوبر؛ انبطح أرضًا من الخوف لأنني لا أعرف ما هي التجربة الغريبة والرهيبة التي قد تُعَد لي..

لقد مرت أربعون سنة منذ أن قتلت غولاب شاه، ومرت أربعين مرة بكل أهوال الموت، دون تحقيق السلام المبارك الذي يكمن وراءها، ليس لدي أي وسيلة لمعرفة ما هو الشكل الذي سيأتي عليه مصيري. لقد أخفيت نفسي في هذا البلد البعيد، وأحَطْتُ نفسي بالحواجز؛ لأن في بعض لحظات الضعف تحثني غرائزي على اتخاذ بعض الخطوات لحماية النفس، ولكنني أعرف جيداً في قلبي مدى عدم جدوى كل شيء. يجب أن يأتوا بسرعة الآن، لأنني أتقدم في العمر وسوف تسبقهم الطبيعة ما لم يسرعوا ([50])

لقد ابتعدت عن زجاجة حمض البروسيك أو زجاجة الأفيون كوسيلة لإنهاء حياتي. لقد كنت قادرًا على مضايقة مطارديّ الغامضين بهذه الطريقة ولكنني اعتقدت أن الرجل في هذا العالم لا يجب عليه أن يهرب من مصيره..

منصبي تم اعفائي منه من قِبل السُّلطات في الوقت المناسب. لم يكن لدي أيُّ تداعيات حول تعريض نفسي للخطر، وخلال حرب السيخ فعلت كل ما يمكن أن يفعله الرجل لمواجهة الموت، ومع ذلك تجاوزني، واختار العديد من الشباب الذين كانت الحياة تتفتح لهم وكان لديهم كل شيء يعيشون من أجله، بينما نجوت من أجل الفوز بالصلبان والأوسمة التي فقدت كل متعتها بالنسبة لي.

حسناً، هذه الأشياء لا يمكن أن تعتمد على الصدفة، ولا يوجد أيُّ سببٍ واضح لذلك كله، لقد وهبتني (بروفيدانس) تعويضًا على شكل زوجة حقيقية ومخلصة، أخبرتها بسري الرهيب قبل الزفاف، ووافقت بنُبلٍ على مشاركتي مصيري. لقد رفعت نصف العبء عن كتفي، ولكن روحها المسكينة سحقت حياتها تحت وزن ذلك العبء! "لقد كان أطفالي أيضًا يعطونني إحساسًا بالراحة. (موردونت) يعرف كل شيء، أو كل شيء تقريباً. (غابرييل) سعينا إلى إبعادها عن الأمر على الرغم من أننا لا نستطيع منعها من معرفة أن هناك شيئاً خاطئاً.

أود أن يظهر هذا البيان للدكتور (جون إيسترلينغ) من (سترانرير).

سمع ذات مرة هذا الصوت المؤرق. قد تظهر له تجربتي المحزنة أنني تحدَّثتُ بصدقٍ عندما قلت أن هناك الكثير من المعرفة في العالم التي لم تجد طريقها إلى إنجلترا.

(ج.ب. هيذرستون)

كان الفجر يلوح في الأفق في الوقت الذي أنهيت فيه قراءة هذا السرد الاستثنائي، الذي استمعت إليه أختي و(موردونت هيذرستون) باهتمام شديد. يمكننا بالفعل أن نرى من خلال النافذة أن النجوم قد بدأت تتلاشى وضوءًا رماديًّا يظهر في الشرق. يعيش المزارع الذي كان يملك الكلب على بُعدِ مَيلين، لذلك حان الوقت لنكون على الأقدام. تركت (إستير) لتخبر والدي بالقصة على النحو المناسب، وضعنا بعض الطعام في جيوبنا وانطلقنا في مهمتنا الجليلة.. والخطيرة!

وفي أحد أسفار العهد القديم يغضب أحد أنبياء بني إسرائيل على الملك لأنه انتصر دون تخريب المدينة التي فتحها ويدعو عليه بالهزيمة وغضب الرب.. وبالطبع هذا الكلام بعيدٌ كلَّ البُعد عن طبيعة الشرائع السماوية السمحة والله -عز وجل- بريء من ذلك التحريف البشع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عـــشـــر

(في هوة كريك)

كان الظلام دامسًا بما فيه الكفاية، وعلمنا أن الأمر لن يكون سهلاً أن نجد طريقنا عبر الممرات، ولكن مع تقدُّمنا، تبددت الظلمات شيئاً فشيئاً، حتى وصلنا إلى منزل (فولارتون) في وضح النهار.

على الرغم من أن الوقت كان مبكرًا كما ذكرت، كان تقريباً مستيقظًا كعادة الفلاحين في ويجتاون يتسابقون على النهوض مبكرًا والانطلاق لأشغالهم.

لقد شرحنا له مهمتنا في أقل عددٍ ممكنٍ من الكلمات، وقُمنا بعقد صفقةٍ معه، فلم يوافق فقط على السماح لنا باستخدام كلبه، ولكنه صمم أن يأتي معنا بنفسه.

كان (موردونت) يرغب في الخصوصية، واعترض على هذا الترتيب لكنني أشرت إليه أنه ليس لدينا فكرة عما يخبئ لنا وقد يكون وجود رجلٍ قويٍّ قادر معنا مفيداً للدرجة القصوى.

أيضًا كان الكلب أقل عرضة للتسبب في مشاكل إذا كان معنا سيده للتحكم فيه. استمررت أحاجيه، حتى رافقنا الرجل بالإضافة إلى رفيقه ذي الأربع أقدام.

كان هناك بعض التشابه القليل بين الاثنين؛ لأن الرجل كان ضخم الرأس مع كتلة كبيرة من الشعر الأصفر ولحية متناثرة، بينما كان الكلب من سلالة طويلة الشعر غير مهذبة تبدو وكأنها حزمة متحركة من البلوط!

طوال طريقنا إلى القاعة ظلَّ مالك الكلب يسرد مميزاته وقدرات تعقب الرائحة الموجودة لديه، والتي وفقاً لروايته كانت أقل بقليل من المعجزات.

أخشى أن نوادره كان لها جمهور غير متحمس، فأنا عقلي كان مشغولاً بالقصة الغريبة التي قرأتها، بينما سار (موردونت) بعيون متوحشة ووجنتين محمومتين، دون التفكير في أي شيء سوى المشكلة التي كان علينا حلها.

مرارًا وتكرارًا عندما صعدنا على التلة العالية، رأيته يتطلع بفارغ الصبر له على أمل خافت في رؤية بعض أثر الغائب، ولكن على كامل مساحة الأراضي البور لم يكن هناك أي علامة على الحركة أو الحياة. كل شيء كان ميتاً وصامتاً ومهجورًا.

كانت زيارتنا للقاعة قصيرة للغاية، حيث كانت كل دقيقة الآن ذات أهمية. هرع (موردونت) إلى الخارج وظهر بمعطف قديم يخص والده، وسلمه إلى (فولارتون) الذي حمله للكلب.

استنشق الوحش الذكي في كل مكان، ثم ركضَ متذمرًا قليلاً في الشارع، وعاد إلى شم المعطف مرة أخرى وأخيرًا رفع جذع ذيله في الانتصار، وبعد سلسلة من الصراخ الحاد لإظهار أنه راضٍ توجَّه

في طريقه.

ربط مالكه حبلاً طويلاً على طوقه لمنعه من السير بسرعة كبيرة بالنسبة لنا، وانطلقنا جميعًا وراء بحثنا، حيث كان الكلب يشد السلسلة في إثارة وهو يتبع خطى الجنرال.

كان طريقنا يمتد لبضع مئات من الأمتار على طول الطريق السريع، ثم مررنا عبر فجوة في السياج واتجهنا إلى المرسى، حيث مررنا على خلية نحل إلى الشمال.

كانت الشمس قد ارتفعت في ذلك الوقت فوق الأفق، وبدا الريف بأكمله منعشًا وحلوًا للغاية، من البحر الأزرق المتلألئ إلى الجبال الأرجوانية بحيث كان من الصعب إدراك مدى غرابة الحدث الذي انخرطنا فيه.

لا بُدَّ أن الرائحة استقرت بقوة على الأرض؛ لأن الكلب لم يتردد أبداً أو يتوقف وسحبَ سيده بوتيرة جعلت من المحادثة مستحيلة.

في مكانٍ ما، عقب عبور جدول صغير بدا أننا انحرفنا من المسار لبضع دقائق، لكنَّ صديقَنا صاحب الأنف القوية سرعان ما التقط الرائحة على الجانب الآخر وتبعها عبر المستنقع الزلق، وهو يئنّ ويصرخ طوال الوقت في شغفٍ.

لو لم يكن ثلاثتنا نحث الخطى ونسابق الرياح لما استطعنا أن نستمر في الرحلة المستمرة والسريعة على الأرض الوعرة، حيث كانت الحشائش الطويلة قريبة جداً من خصورنا.

من ناحيتي، ليس لدي أي فكرة الآن، بالنظر إلى الوراء، ما هو الهدف الذي كنت أتوقع الوصول إليه في نهاية سعينا. أتذكر أن ذهني كان مليئاً بالمضاربات الأكثر غموضًا والأكثر تنوعًا.

هل يمكن أن يكون لدى البوذيين الثلاثة مركب صغير جاهزة قبالة الساحل، وتحركوا بها مع سجنائهم نحو الشرق؟ بدا اتجاه المسار الذي قطعناه في صالح هذا الافتراض؛ لأنه كان يقع ناحية الطرف العلوي للخليج، لكنه انتهى إلى نقطة تفرع تؤدي مباشرة نحو الأرض.

من الواضح أن المحيط لم يكن نهاية أعمالنا.

وبحلول الساعة العاشرة، مشينا نحو مسافة اثني عشر ميلاً، واضطررنا إلى التوقف لبضع دقائق لاستعادة أنفاسنا، في آخر ميل أو ميلين كنا نسير على المنحدر الطويل والمرهق لتلال ويجتاون.

من قمة هذا النطاق، الذي لا يزيد ارتفاعه عن ألف قدم، استطعنا أن نرى بالنظر إلى الشمال مشهداً من الكآبة والخراب الذي لا يمكن أن تضاهيه أي بلد.

على الفور عند الأفق امتدت مساحة واسعة من الطين والماء، اختلطتا معًا في فوضى عنيفة، مثل جزءٍ من العالم في عملية التكوين. هنا وهناك على سطح هذا المستنقع الكبير الملوَّن، انفجرت بقعٌ من القصب الأصفر الشاحب والطحالب الخضراء المليئة بالحياة، والتي عملت فقط على زيادة وتكثيف التأثير الكئيب الممل على الجانب الأقرب إلينا، أظهرت بعض رقع المستنقعات المهجورة أن وراء

هذه الندوب الصغيرة القليلة لم تكن هناك أي إشارة في أي مكانٍ عن حياة بشر. ولا حتى غراب ولا طائر النورس مر في طريقه فوق تلك الصحراء البشعة.

هذا هو مستنقع (كري) العظيم. إنه مستنقع من المياه المالحة تكون من غزو البحر لجزء من اليابسة، وهو يتقاطع مع مستنقعات خطيرة ومزالق غادرة من الطين السائل، بحيث لا يغامر أي شخص من خلالها إلا إذا كان لديه مرشد من أحد الفلاحين القلائل الذين يحتفظون بسر مساراتها.

مع اقترابنا من حافة المستنقع التي ميزت حدوده، ارتفعت رائحة كريهة ورطبة من البرية الراكدة، مثل الماء النجس والنباتات المتحللة. رائحة ترابية صاخبة سممت هواء المرتفعات المنعش.

كان المكان محرمًا وغامضًا، وهو ما جعل قائدنا الشجاع يتردد قليلاً للدخول فيه، وكان كل ما يمكننا القيام به لإقناعه بالمضي قدمًا هو تشجيعه وتلقيبه بتلك الصفة.

أما الكلب فلم يلقِ بالاً لانطباعات صاحبه وبقيت أنفه على الأرض، وكل ذرة من جسمه ترتجف بحماس وإثارة.

لم تكن هناك صعوبة في شق طريقنا عبر المستنقع، فإذا كان هناك خمسة رجال شقوا طريقهم فنحن أيضًا نستطيع ذلك!

إذا كانت لدينا أي شكوك حول توجيه كلبنا، فسيتم إزالتها جميعًا الآن؛ لأنه في التربة الناعمة والطين الأسود يمكننا تتبُّع مسارات حشد كامل. من هنا يمكننا أن نرى أنهم قد ساروا وراء بعضهم البعض، علاوة على ذلك، كل منهم كان على مسافة متساوية من الآخر.

ومن الواضح، إذاً، أنه لم يتم استخدام القوة البدنية في اصطحاب الجنرال ورفيقه. كان الإكراه نفسيًا وليس ماديًا.

مرة واحدة داخل المستنقع، كان علينا أن نكون حَذِرين في عدم الانحراف عن المسار الضيق، الذي به موطئ قدم ثابت.

على كل جانب كانت هناك صفحة ضحلة من المياه الراكدة التي تعلو قاع من الطين شِبه السائل، الذي ارتفع فوق السطح هنا وهناك في ضفاف رطبة ومتدفقة، مرقطة بقطع عرضية من النباتات الذابلة. وتدلت فطريات أرجوانية وصفراء كبيرة في انتشار كثيف كما لو كانت الطبيعة مصابة بمرض كريه تجلت في هذا المحصول كبقع الطاعون.

هنا وهناك مخلوقات مظلمة تشبه السلطعون مغمورة في طريقنا والديدان البشعة بلون اللحم تتلوى وتزحف وسط القصب الشاحب الهزيل. ظهرت أسراب من الحشرات الطنانة في كل خطوة وشكلت سحابة كثيفة حول رؤوسنا واستقرت على أيدينا ووجوهنا وقامت بلدغنا بسمها القذر. لم يسبق لي أن غامرت في هذا الوباء في ذلك المكان.

ومع ذلك، سار (موردونت) بهدف محدد على جبينه العابس، ولا يسعنا إلا أن نتبعه مصممين على الوقوف بجانبه حتى نهاية المغامرة.

مع تقدمنا، صار المسار بشكل أضيق وأضيق حتى - كما رأينا من خلال آثار الأقدام - اضطر من سبقونا، إلى السير واحداً تلو الآخر. كان (فولارتون) يقودنا مع الكلب، (موردونت) خلفه، بينما بقيت أنا في المؤخرة. كان الفلاح عابسًا وثابتاً لفترة من الوقت، بالكاد يجيب عند التحدث إليه، لكنه توقف الآن ورفض بشكل قاطع التوغل أبعد من ذلك، قال:

"إنه ليس آمناً، بالإضافة إلى أنني أعرف أين سيقودنا."

"إلى أين إذاً؟" سألت.

أجاب: "حفرة (كري)."

"أنا لا أفهم كثيرًا، حفرة (كري)! ما بها إذاً؟"

"إنها حفرة كبيرة مليئة بالكتل في الأرض تنجرف عميقاً بحيث لا يمكن لأحد الوصول إلى القاع..

"لقد كنت هناك إذاً؟" سألت.

"كنت هناك!" صرخ "ماذا سأفعل في حفرة كري؟ لا، لم أكن هناك قط، ولا أي رجل آخر عاقل يجرؤ على ذلك."

"كيف تعرف ذلك، إذاً؟"

أجاب فولارتون: "كان جدي الأكبر هناك، وهذا كل ما أعرفه، لقد كانت ليلة السبت وذهب للمراهنة. لم يحب الحديث عن تلك الليلة بعد ذلك، ولم يصرح بما حدث له؛ كان هو أول من دخل من آل فولارتون إلى حفرة كري، وسيظل الأخير دائمًا! إذا كنت ستأخذ بنصيحتي، فكل ما عليك فعله هو أن تنسى الأمر ونعود أدراجنا مرة أخرى؛ لأنه لا يوجد سبيل للخروج من هذا المكان."

أجاب (موردونت): "سنستمر معك أو بدونك، دعنا نحصل على كلبك، ويمكننا أن نرده إليك في طريق عودتنا."

صرخ: "لا، لا، إن كلبي خجول، وسيركض ورائي كما لو كان أرنباً. يجب أن يظل الكلب معي."

قال رفيقي وعيناه ملتهبتان:

"الكلب سيذهب معنا، ليس لدينا وقت للمجادلة معك. إليك بخمسة جنيهات. دعنا نأخذ الكلب، أو بحق السماء، سآخذه بالقوة وأرميك في المستنقع إذا أعقتنا."

استطعت أن أعرف طباع (هيذرستون) قبل أربعين عامًا عندما رأيت الغضب الشديد والمفاجئ الذي أضاء ملامح ابنه.

إما أن الرشوة أو التهديد كان له التأثير المطلوب؛ حيث أمسك رفيقنا بالمال بيدٍ واحدة بينما قام بتسليم المقود المربوط بالسلسلة باليد الأخرى. تركناه ليتبع خطواته عائداً، وواصلنا شق طريقنا إلى أقصى أعماق المستنقع الكبير.

ضاق المسار الملتوي بشكل أقل وأقل تحديداً أثناء تقدمنا، حتى إنه تم غمره في مناطق كثيرة بالماء، ولكن الإثارة المتزايدة ومشاهد الآثار العميقة في الوحل حفزتنا على المضي قدمًا.

أخيرًا، بعد صراع مع مجموعة من نباتات البردي العالية، وصلنا إلى مكان قد يكون رعبه الكئيب قد زود دانتي([51]) برعب جديد لـ "جحيمه".

يبدو أن المستنقع بأكمله في هذا الجزء قد غرق مشكِّلاً هوة كبيرًا على شكل قُمع انتهى في المركز في صدع دائري أو فتحة قطرها حوالي أربعين قدمًا. كانت دوامة دائرية مثالية من الطين، تنحدر من كل جانب إلى هذه الهوة الصامتة والمروعة.

من الواضح أن هذه هي البقعة التي تحمل سمعة شريرة بين الريف تحت اسم حفرة كري. لا يمكنني أن أتساءل عن إثارة إعجابهم ونسجهم حولها قصص من الخيال؛ لأنه لا يمكن تصوُّر مشهد أكثر غرابة أو كآبة، أو مشهد آخر أكثر جاذبية من ذلك.

مرت الخطوات على الانحدار الذي أحاط الهاوية، وتبعناها بشعور غصة في قلوبنا؛ حيث أدركنا أن هذه كانت نهاية بحثنا.

كان طريق العودة إلى أسفل قليلاً هو درب العودة الذي قامت به أقدام أولئك الذين عادوا من حافة الهوة.

سقطت أعيننا على هذه الآثار في نفس اللحظة، وأطلق كلٌّ منَّا صرخة رعب، ووقفنا نحدق دون التفوه بكلمة.

هناك، في تلك الآثار الضبابية، تم الكشف عن المأساة بأكملها.

خمسة سقطوا لكن ثلاثة فقط عادوا!

لا أحد يعرف تفاصيل تلك المأساة الغريبة؛ لم تكن هناك علامة على المقاومة ولا علامة على محاولة الهروب. ركعنا على حافة الحفرة وسعينا لرؤية أي شيء في أعماقها. يبدو أن زفيرًا خافتاً ومريضًا يتصاعد من باطنها، وكان صوتاً متقطعًا وبعيداً يمثِّل فوران المياه في أحشاء الأرض.

كان هناك حجر كبير مغروس في الوحل، قمت برميه في الحفرة لكننا لم نسمع قط صوتاً لإظهار أنه وصل إلى القاع.

عندما كنا نتدلى على الهوة الصاخبة، ارتفع صوت أخيرًا إلى آذاننا من أعماقها الغامضة، عالٍ، واضح، صوت رنين يجاهد من أجل الخروج من الهاوية، ليخلفه نفس السكون المميت الذي سبقه.

لم أكن أرغب في أن أبدو مخرفاً، أو أن أميل لأسبابٍ غير عادية قد يكون لها تفسير طبيعي. قد تكون تلك النغمة القوية القادمة كصوتٍ غريبٍ من الماء جاءت من بعيدٍ في أحشاء الأرض، ربما كان ذلك الجرس الشرير الذي سمعته كثيرًا. إذا كان على هذا النحو، فستكون العلامة الوحيدة التي ظهرت لنا من المثوى الأخير البشع للاثنين اللذين سددا الديون التي كانت مستحقة منذ فترة طويلة.

ضممنا أصواتنا في نداء عنيد غير منطقي قد يدفع الرجال للتمسك في الأمل، لكن لم يأتنا أيُّ ردٍ باستثناء الأنين الأجوف من الأعماق تحتنا.

بعد تعب أقدامنا وقلوبنا، قمنا بتتبع خطواتنا وتسلقنا المنحدر اللزج مرة أخرى.

"ماذا سنفعل يا (موردونت؟)" سألت بصوت خافت "لا يسعنا إلا أن نصلي لهم كي تستريح أرواحهم بسلام."

نظر الشاب (هيذرستون) إليَّ بعينين لامعتين، وصرخ قائلاً:

"قد يكون هذا وفقاً لقوانين غامضة، لكننا سنرى ما يجب أن تقوله قوانين إنجلترا بشأنه. أعتقد أن (الشيلا) مثل أي رجلٍ آخر يمكن شنقه عقاباً له، ربما لم يتأخر الوقت بعد للقبض عليهم. تعال هنا، كلب جيد، كلب جيد!"

سحب الكلب ووضعه ليقتفي آثار أقدام الرجال الثلاثة. استنشقه المخلوق مرة أو مرتين، ثم سقطَ على بطنه، بشعره الخشن ولسانه البارز، كان يرتجف ويرتعد وهو تجسيد شديد لرعب الكلاب. قلت:

"كما ترى، لا فائدة من التنافس ضد أولئك الذين لديهم قدرات غير محدودة تحت إمرتهم ولا يمكننا حتى إعطاء اسم لهم. لا نملك سوى قبول الأمر الواقع وقد يحصل ضحيتيهما على بعض التعويض في العالم الآخر عن كل ما عانوه في هذه الدنيا."

صرخ (موردونت) بغضب: "وتحرروا من كل الديانات الشيطانية وأتباعها القاتلين!"

أجبرتني العدالة على الإقرار بأن الروح القاتلة يجب أن تحصل على جزائها، هذا موجود بعقيدتنا قبل أن يقتص البوذيون ويضعوا قوانينهم، لكنني امتنعت عن التعليق، لئلا أضايق رفيقي.

لفترة طويلة لم أستطع سحبه بعيداً عن مسرح وفاة والده، ولكن أخيرًا من خلال الحجج والأسباب المتكررة، نجحت في إقناعه بعدم جدوى أي جهود أخرى من جانبنا وحملته على العودة معي إلى كلومبر.

أوه، الرحلة المملّة والمرهقة!

في بداية الأمر كان هناك وميض قليل من الأمل، أو على الأقل توقعات بالنجاة، ولكن الآن قد تحققت أسوأ مخاوفنا بعد أن ظننا أنها بلا نهاية.

استقبلنا مرشدنا المزارع عند بداية المستنقع، وبعد استعادة كلبه سمحنا له بالعثور على طريقه الخاص إلى المنزل دون إخباره بأي شيء من نتائج بعثتنا. لقد انغمسنا نحن أنفسنا طوال النهار سيرًا على الأقدام بخطى ثقيلة وقلوب مهمومة حتى رأينا برج كلومبر المشؤوم، وأخيرًا مع غروب الشمس وجدنا أنفسنا مرة أخرى تحت سقفه.

لا حاجة لي أن أدخل في مزيد من التفاصيل ولا أن أصف الحزن الذي نقلته وجوهنا إلى الأم وابنتها. توقعهن لمصيبة لم يكن كافياً لإعدادهم للواقع الرهيب.

سقطت (غابرييل) بين الحياة والموت، وعلى الرغم من أنها تعافت في نهاية المطاف بفضل تمريض أختي والمهارة المهنية للدكتور (جون إيسترلينج) ولكنها لم تسترد حيويتها بشكل كامل. عانى (موردونت) أيضًا كثيرًا لبعض الوقت، وبعد عودتنا إلى (إدنبره) فقط بدأ يتعافى من الصدمة التي تعرض لها.

أما السيدة المسكينة (هيذرستون) لم يكن للعناية الطبية ولا التغيير تأثير دائم عليها. ببطء وبشكل متتالٍ، ولكن بهدوء شديد تدهورت صحتها وقوتها، حتى اتضح بعد عدة أسابيع أنها سوف تلحق بزوجها وتعيد إليه الشيء الوحيد الذي حزن على تركه وراءه.

عاد لورد برانكسوم إلى وطنه من إيطاليا وقد استعاد صحته، ونتيجة لذلك اضطررنا للعودة مرة أخرى إلى إدنبره.

كان التغيير مقبولاً لنا، لأن الأحداث الأخيرة ألقت بظلالها على حياتنا الريفية الهادئة وأحاطتنا بوقائع غير سارة. إلى جانب ذلك، كان منصب المشرف بمكتبة الجامعة -وهو منصب له أهميته المعنوية والمادية- شاغرًا، وقد تم ترشيح والدي له، من خلال لطف الراحل السير (ألكسندر غرانت)، ولم يستغرق والدي وقتاً طويلاً لقبول ذلك المنصب الملائم.

بهذه الطريقة عدنا إلى إدنبره أكثر أهمية بكثير مما كنا عندما تركناها ولم تكن لنا حاجة الآن لشغل أنفسنا بتفاصيل التدبير المنزلي؛ لأن في الحقيقة تم حل الأسرة بأكملها..

فقد تزوجت منذ عدة أشهر من عزيزتي (غابرييل)، و (أستر) أصبحت السيدة (هيذرستون) في 23 من الشهر نفسه.

إذا جعلته سعيداً كما فعلت شقيقته معي، فسنعتبر أنفسنا -أنا و(موردونت)- رجالاً محظوظين!

هذه ليست سوى أحداث هامشية كما أوضحت بالفعل، ولكنني لا أستطيع تجنب التلميح إليها.

هدفي في صياغة هذه الرواية ونشر الأدلة التي تؤكدها، لم يكن بالتأكيد عرض شئوني الشخصية أمام الجمهور، بل ترك سجل يبرز سلسلة من الأحداث. عن طريق القيام بذلك بأسلوب منهجي قدر الإمكان دون المبالغة أو التقصير.

القارئ الآن أمامه الأدلة، ويستطيع أن يكوِّن رأياً مستقلاً دون الرجوع إليَّ حول أسباب اختفاء ووفاة كلٍّ من الجنرال (هيذرستون) والعريف (روفوس سميث)

هناك نقطةٌ واحدةٌ لا تزال غامضة بالنسبة لي؛ لماذا يجب أن تنقل (شيلا) غولاب شاه ضحاياها إلى حفرة كري المهجورة بدلاً من إنهاء حياتهم في كلومبر؟

أعترف أنه أمر غامض بالنسبة لي!

ومع ذلك، فعند التعامل مع القوانين الغامضة، يجب أن نُقِرّ بجهلنا الكامل للموضوع، من الممكن أن أرى أنه كان هناك بعض التشابه بين ذلك المستنقع الفظيع والتدنيس الذي تم ارتكابه، وأن طقوسهم وعاداتهم تتطلب أن يكون مثل هذا الموت هو العقاب المناسب للجريمة.

حول هذه النقطة، يؤسفني أن أكون عقائدياً، ولكن على الأقل يجب أن نعترف بأن الكهنة البوذيين يجب أن يكون لديهم سبب جيد جداً للقيام بذلك العمل عن عمد.

بعد ذلك بأشهر شاهدت فقرة قصيرة في جريدة (نجمة الهند) تعلن أن ثلاثة بوذيين بارزين - لال حومي، ومودار خان، ورام سينغ - قد عادوا للتو في سفينة ديكان البخارية من رحلة قصيرة إلى أوروبا. تم تخصيص الموضوع التالي لسرد حياة وخدمات الجنرال القائد (هيذرستون) (الذي اختفى مؤخرًا من منزله الريفي في (ويجتاونشاير)، ويرجِّح العديد أنه قد توفي غرقاً).

أتساءل عما إذا كان هناك بالصدفة أي عين بشرية أخرى بخلاف عيني التي لاحظت العلاقة بين هذه الفقرات. لم أريها أبداً لزوجتي أو لموردونت، وسوف يعرفونها فقط عندما يقرأون هذه الصفحات.

لا أعرف أن هناك أي نقطة أخرى تحتاج إلى توضيح. سيكون القارئ الذكي قد رأى بالفعل أسباب خوف الجنرال من الوجوه الداكنة البشرة، وتجول المتشردين (لا يعرف كيف قد يأتي ملاحقوه وراءه)، والزائرين (من نفس السبب ولأن جرسه البغيض كان عرضة للرنين في كل الأوقات).

قاده نومه المتأرق إلى التجول في المنزل ليلاً، ولم يكن هناك شك في المصابيح التي أشعلها في كل غرفة لمنعه من البقاء في الظلام وسط مخاوفه. أخيرًا، كانت احتياطاته المتقنَة، كما أوضح هو نفسه، نتيجة لرغبة محمومة في القيام بشيءٍ لم يكُن متوقَّعًا أنه يمكنه فعلاً درء مصيره.

سيخبرك العلم أنه لا توجد مثل هذه القدرات كما يدَّعي الصوفيون الشرقيون.

أنا.. (جون فوثيرجيل ويست)، يمكنني أن أجيب بثقة بأن العلم خاطئ!

ما هو العلم؟

العلم هو إجماع آراء العلماء، وقد أظهر التاريخ أن قبول الحقيقة بطيء؛ سخر العلم من نيوتن لمدة عشرين عامًا!

أثبت العلم رياضيًا أن سفينة حديدية لا يمكنها السباحة، وأعلن العلم أن الباخرة لا يمكنها عبور المحيط الأطلسي!

مثل ما قيل على لسان (مفستوفيليس) الشيطان في مسرحية (فاوست) ليوهان غوتة: فإن موطن قوة الأستاذ الحكيم (توماس ديديموس)([52]) هو "الإنكار الدائم".. وقد استخدم ديديموس لهجته ومصطلحاته الخاصة في كتاباته الدينية الأولى.

لعله يعرف أنه إذا كفَّ عن الاعتقاد بكمال أساليبه الخاصة ونظر إلى الشرق الذي تأتي منه جميع الاتجاهات المعرفية العظيمة، فسيجد هناك مذهب من الفلاسفة والعلماء الذين يعملون بقواعد مختلفة عنه، وسيعرف أن أمامه آلاف السنين كي يحوز جميع أساسيات المعرفة.

آرثر كونان دويل

1888

القاهرة

أبريل 2020

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

لينك الانضمام الى الجروب – Group Link

لينك القنـــــاة – Link

الفهرس..

عن الكاتب..

عن الرواية..

الفصل الأول

(الهجرة من ادنبرة ())

الفصل الثاني

(السلوك الغريب للمستأجر القادم إلى كلومبر)

الفصل الثالث

(نظرة فاحصة على شخصية الجنرال القائد هيذرستون)

الفصل الرابع

(الشاب ذو الشعر الرمادي)

الفصل الخامس

(أربعة في ظل كلومبر)

الفصل السادس

(أصبحت أحد حماة كلومبر!)

الفصل السابع

(وصول العريف روفوس سميث إلى كلومبر)

الفصل الثامن

(شهادة إسرائيل ستاكيس)

الفصل التاسع

(قصة جون إسترلينغ)

الفصل العاشر

(الرسالة التي جاءت من القاعة)

الفصل الحادي عشر

(جنوح القارب بليندا)

الفصل الثاني عشر

(ثلاثة رجال غرباء على الشاطئ)
الفصل الثالث عشر
(ما شاهدته، وغفلت عنه!)
الفصل الرابع عشر
(الزائر المهرول ليلًا في الطريق)
الفصل الخامس عشر
(من دفتر يوميات الجنرال هيذرستون)
الفصل السادس عـشـر
(في هوة كريك)

Notes

[←1]

(1) (ادنبرة): مدينة بإسكتلندا تتبع التاج البريطاني.

[←2]

(2) (الحرب الأفغانية الأولى): حرب دارت بين التاج البريطاني وأفغانستان، من سنة *1838* إلى *1842*

[←3]

(3) (السنسكريتية): لغة قديمة في الهند وهي لغة طقوسية للهندوسية، والبوذية، والجانية. لها موقع في الهند وجنوب شرق آسيا مشابه للغة اللاتينية واليونانية في أوروبا

[←4]

(4) (فريد الدين عطار): شاعر فارسي متصوف، قال البعلبكي أنه «يُعتبر أحد أعظم الشعراء والمفكرين الصوفيين المسلمين». عُرف بغزارة الإنتاج، وقد تركت أعماله أثرًا ملحوظًا في الأدب الفارسي وفي الآداب الإسلامية الأخرى أيضًا. أشهر آثاره منطق الطير وهو شبه ملحمة نقع فيها على أوضح تفسير شعري للتصوّف الفارسي.

[←5]

(5) *الفيردوسي: شاعر فارسي شهير.*

[←6]

(6) سوبرون: دارت معركة سوبرون في 10 فبراير 1846م، بين قوات شركة الهند الشرقية وجيش سيخ خالسًا، جيش إمبراطورية السيخ في البنجاب. لقد هُزم السيخ تمامًا، مما جعل هذه المعركة الحاسمة للحرب السيخية الأولى.

[←7]

(7) *أوده: ولاية هندية في منطقة عوض بشمال الهند، تم ضمها للتاج البريطاني في عام 1856م.*

(8) *الفايتون*: عربة قديمة صغيرة تجرها المهور [←8]

[←9]

(9) *النيجوس: شراب من الماء والسكر والليمون والخمر*

[←10]

(10) *بلفاست: مدينة بلفاست هي عاصمة أيرلندا الشمالية التابعة للتاج البريطاني.*

[←11]

(11) المونومانيا: مرض نفسي يعرف باسم (الهوس الأحادي) حيث يميل المريض للعزلة والخوف من الآخرين.

[←12]

(12) البانتام: مجموعة متنوعة من الدواجن الصغيرة خاصة الدجاج، أخذت اسمها من مدينة بانتام (بانتن) الإندونيسية. البحارة الأوروبيون اكتشفوا هذه الدواجن الصغيرة وعملوا على تربيتها لرحلاتهم البحرية، وأطلق اسم بانتام على كل نوع صغير من الدواجن وجد في تلك المنطقة.

[←13]

(13) غزنة: مدينة بأفغانستان.

[←14]

(14) جون نوكس: مصلح ديني إسكتلندي وقائد حركة الإصلاح البروتستانتي كانت له اليد الطولى في نقل البلاد من الكاثوليكية إلى البروتستانتية.

[←15]

(15) القياس بدرجة الفهرنهايت وليس السليزيوس، و(104 فهرنهايت) تساوي 40 درجة مئوية.

[←16]

(16) *الكينين: مركب شبه قلوي أبيض بلوري ذو خصائص عديدة منها: خافض للحرارة، علاج للملاريا، مسكن، مضاد للالتهاب، وذو طعم مُر. وهو متصاوغ فراغي للكوينيدين الذي يستخدم لعلاج اضطراب نظم القلب.*

[←17]

(17) *الجنبة*: هي *تهتك الغشاء الجانبي للضلع*.

[←18]

(18) جون تيندل: فيزيائي بريطاني. اختير عام 1853 م أستاذاً للفلسفة الطبيعية في «المعهد الملكي» بلندن حيث أصبح زميلاً وصديقاً لمايكل فاراداي.

[←19]

(19) هكسلي: توماس هنري هكسلي عالم أحياء بريطاني. هو ابن لمعلم رياضيات. وهو جَد جوليان هكسلي (1887 – 1975) الإخصائي في علم الحيوان والفيلسوف والمربي والكاتب، ولجوليان دور كبيرٍ في تأسيس اليونسكو. وهو أيضًا جد الروائي والشاعر الإنجليزي ألدوس هكسلي. كان قد لُقِّبَ بـ (كلب داروين) لدفاعه القوي عن نظرية تشارلز داروين النشوء والتطور التي كانت مثيرة للجدل والرفض من قبل علماء دين والعديد من علماء الأحياء آنذاك.

[←20]

(20) مسمر: *فرانز أنطون مسمر كان طبيباً سويسرياً عاش في القرن الثامن عشر، اهتم بعلم الفلك والتنويم الإيحائي.*

[←21]

(21) جاستينيوس كيرنر: شاعر ألمانيٌّ وطبيبٌ ممارسٌ وكاتبٌ طبيٌّ. أعطى أول وصف تفصيلي للتسمم الغذائي.

[←22]

(22) الافريديس: قبيلة من البشتون هم الأكثر هيمنة في المناطق القبلية الخاضعة للإدارة الفيدرالية في باكستان.

[←23]

(23) كيركمايدين: هي أبرشية في رينز جالاوي، وهي الأكثر جنوباً في إسكتلندا ؛ تحمل أبرشية كنيسة إسكتلندا الحالية نفس الاسم وتوافق تقريباً مع رعية ما قبل الإصلاح الأصلية. سُمِّيَت على اسم القديس ميدان من العصور الوسطى، الذي يُطعَن في هويته واسمه وجنسه وأصله، وهو الخليج الذي تدور عنده أحداث القصة.

[←24]

(24) نهر كلايد: نهر يتدفق في لسان كلايد في إسكتلندا. وهو ثامن أطول نهر في المملكة المتحدة، وثاني أطول نهر في إسكتلندا. السفر عبر المدينة الرئيسية في غلاسكو، كان نهرًا مهِمًّا لبناء السفن والتجارة في الإمبراطورية البريطانية.

[←25]

(25) *اللهجات التورانية: لهجات قديمة كانت منتشرة في جنوب شرق آسيا.*

[←26]

(26) البراهيمينية: في الهندوسية، يشير مصطلح البراهمان إلى الروح الفائقة العالمية، وهي الأصل وهي التي تؤيد العالم الظاهري. وفي بعض الأحيان يُشار إلى براهمان على أنها المطلق أو الإله والتي تعد إلهًا لجميع الأمور والطاقة والوقت والفضاء والكون وكل شيء في هذا.

[←27]

(27) *شاكيامونـي: هو شاكيامونـي بوذا مؤسس ديانة أو فلسفة البوذية، ويلفظ اسمه أيضًا وبوذا ليس اسم علم على شخص بعينه، وإنما هو لقب ديني عظيم، معناه الحكيم، أو المستنير، أو ذو البصيرة النفاذة، وهو الذي يُعلن طريقة خلاص البشر من دائرة الولادة المتكررة ولكن أتباعه حوّلوا تعاليمه إلى مبادئ دينية وألهوه*

[←28]

(28) *السامافيدا: مجموعة من من الألحان والهتافات. إنه نَص قديم باللغة السنسكريتية الفيدية، وجزء من الكتب المقدسة للهندوسية. واحد من الفيدا الأربعة، وهو نص ليتورجي يتكون من 1549 آية. تم أخذ جميع الآيات باستثناء 75 من ريجفدا. نجت ثلاث نسخ من السامافيدا، وتم العثور على مخطوطات مختلفة من الفيدا في أجزاء مختلفة من الهند.*

[←29]

(29) *الدارما: الطريقة الصحيحة في العيش أو التواصل الصحيح خصوصًا ضمن مفهوم ديني وروحاني. بالنسبة للروحانية والمدارس الصوفية فإن الدارما يمكن اعتبارها طريق الحقيقة العليا. تشكل الدارما المصطلح الأساسي ضمن الديانات الدارمية الناشئة في شبه الجزيرة الهندية بما فيها الهندوسية (سانتانا دارما) والبوذية (بوذادارما) والجاينية (جاينا دارما) والسيخية، جميع هذه الأديان تؤكد على الدارما (الفهم الصحيح للطبيعة) في تعليماتهم.*

[←30]

(30) *الجلينجاري: القبعة الإسكتلندية المميزة.*

[←31]

(31) ميلتون: جون ميلتون شاعر وعالم إنجليزي من القرن 17، يعرف أكثر لقصيدة "الفردوس المفقود" التي كتبها في عام 1667. أصيب في فترة لاحقة من حياته بالعمى، وكتب حول ذلك قصيدة مكونة من 14 بيتاً شعرياً. إلى جانب جيفري تشوسر ووليام شكسبير، يعتبر جون ميلتون من أبرز شعراء الأدب الإنجليزي.

[←32]

(32) لويدز: شركة تأمين عملاقة عريقة مقرها في لندن تهتم بالتأمين على الشحنات البحرية والمراكب العملاقة.

[←33]

(33) *البروناز: الكتابات الهندوسية الأسطورية.*

[←34]

(34) *رامايانا*: *ملحمة شعرية هندية قديمة بالسنسكريتية تنسب إلى الشاعر □الميكي.*

[←35]

(35) *شيلات : الشيلا هو مريد المعلم الروحاني الهندي وتلميذه.*

[←36]

(36) *الصاري: رتبة مستحدثة في الحرب الإنجليزية الهندية تعني جندي حصان من القوات المحلية، وهم جنود بدائيون ليسوا على دراية كافية بفنون الحرب والقتال.*

[←37]

(37) *البشتون*: مجموعة عرقية متمردة على الحكم البريطاني من جذور أفغانية.

[←38]

(38) *الأيزيل: بندقية قنص بسيطة شاع استخدامها في الهند البريطانية.*

[←39]

(39) *بلاكسيلي: قرية في مقاطعة نورثهامبتونشاير.*

[←40]

(40) *شارتر هاوس: مدرسة عريقة بإنجلترا.*

[←41]

(41) فلورنتيا سيل: سافرتِ حول العالم أثناء زواجها من زوجها السير روبرت هنري سيل، ضابط بالجيش البريطاني. أطلق عليها اسم "النسائيون" لسفرها مع الجيش، والتي أخذتها إلى مناطق مثل موريشيوس وبورما والهند، والعديد من المناطق الأخرى الخاضعة لسيطرة الإمبراطورية البريطانية.

[←42]

(42) السير وليم ماكنجتن: هو دبلوماسي ومستشرق بريطاني، لعبَ دورًا مهمًّا في الحرب الإنكليزية الأفغانية الأولى. قصد مدراس سنة 1809 م وعمل في البنغال 1816 م. عُين حاجبا للورد وليم بنتنك سنة 1830 م ثم أمينا للحاكم العام اللورد أوكلاند سنة 1837 م وتم اغتياله في أفغانستان عام 1840.

[←43]

(43))الجيمدار: رئيس أو قائد فرقة أو مجموعة أشخاص؛ على وجه الخصوص، في الجيش الأصلي للهند، ضابط برتبة ملازم برتبة ملازم في الجيش الإنجليزي.

[←44]

(44) *في التوراة يلزم أنبياء بني إسرائيل ملوكهم في الحرب أن يقوموا بتخريب القرى وقتل الرجال والأطفال وسبي النساء!!*

[←45]

(45) *الداحس: مرض جلدي كالبهاق.*

[←46]

(46) *السيبويس*: جنود هنود مدربون من قِبَل *الإنجليز*.

[←47]

(47) مسرح دروري لين: المسرح الملكي دروري لين هو من مسارح الوست اند، يقع ما بين كاثرين ستريت ودروري لين، في منطقة كوفنت غاردن بلندن. يعتبر أقدم مسرح في العالم ما زال يقدِّم عروضًا، فقد كان هناك مسرح في نفس الموقع منذ عام 1663 م.

[←48]

(48) *الكاربينة: بندقية قصيرة الفوهة.*

[←49]

(49) كيروت: سيجار أفغاني.

[←50]

(50) يقصد أنه اقترب من الوفاة بطريقة طبيعية قبل أن يحقق الشيلاس انتقامهم.

[←51]

(51) دانتي: شاعر إيطالي صاحب كتاب (الكوميديا الإلهية) المنقسم إلى ثلاثة أجزاء، أولها (الجحيم) حيث يصف العذاب الرهيب للقساة والزناة والمنافقون وغيرهم من أهل الشر في السعير.

[←52]

(52) توماس ديديموس: القديس توما وهو الذي حاور المسيح عليه السلام على مائدة العشاء الأخير وهو المبشر المعترف به في الهند، واشتهر بحبه للجدال والوصول للحقيقة عن طريق المجادلة والإقناع العقلي، ويضرب المثل بين المسيحيين بشك توماس ووصوله للإيمان عن طريق العقل.